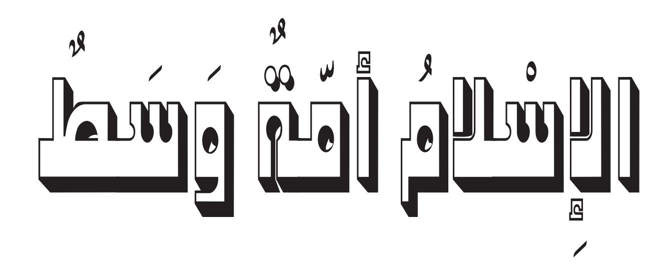




أُمَّةٌ وَسَطْ

تأليف : ردينة وصفي اللبدي





تأليف

ردينة وصفي اللبدي

بين يدي الكتاب

إنّ العرب أمة كسائر الأمم ، جاءها هدى السماء ، غير أنها اختصت برسالة الإسلام ، والتي هي خاتمة الرسالات، فكلفت هذه الأمة بتكاليف فاقت التكاليف التي كلفت بها أي أمّة أخرى وذلك لأن تعليماته عامّة ، شاملة لجميع جوانب الحياة فهي الخط الذي اختطّه الله ليسير الناس عليه طوال حياتهم ولو لم تكن هذه الرساله بهذا الشمول فكيف تصلح لتكون ديناً لكافة الناس في سائر أزمانهم وأماكنهم ؟!! وإن دين الاسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشر من أول الخلق، لكن الأمم السابقة عجزت عن حمل رسالتها وفشلوا من بداية الأمر ومن السطور الأولى. والمبادئ الأساسية للعقيدة توحيد الله الخالق المالك إلى الإيمان بما غاب عنهم من الغيبيات كالجنّة والنار ويوم الحساب والملائكة وغير ذلك.

وقد خالفوا كل توجيه أو إرشاد أمروا به أو أنزل اليهم . وفسدت أعمالهم كما فسدت عقائدهم. أما أمّة محمد ﷺ فقد حملوا ما كلفوا به ، رائدهم الإيمان بالغيب تصديقاً بالله ورسله فحملوا ما كلفوا به ونجحوا بالالتزام بهدى الله وائتمروا بأمره وانتهوا بنهيه ، فأحرزوا رضا الله لإيمانهم بالغيب وخشية الله فاتقوا سخطه وعذابه ولم يعتدوا على حدوده .وعملوا بجد لرفع كلمة الله وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وضحوا بكل غالٍ ونفيس ليحرزوا رضا الله عنهم وكان كل واحد منهم سيفاً مصلتاً على أعداء الله وكانوا إلى جانب ذلك أنصارحق ، وأهل عدل وبرّ وصفهم الله بالرحمة رضي الله عنهم ورضوا عنه .

الإسلام دين الله – دين عدل وحق – يعلم صدقه أهل الديانات السابقة لكنهم عادوه وعارضوا تقدمه وانتشاره وسعوا بكل وسيلة ليكسروا شوكته ويهدموا بنيانه ويطفئوا نور الله – والله متم نوره ولو كرهوا ، وما كان ذلك إلّا حسداً

منهم لما رأوا من علو شأنه ونجاح مقاصده وسعي أمة الإسلام الدؤوب لنشره والدعوة له .

إن اختيار أمة العرب لهذه المهمة الجليلة فضل من الله ، والله يختص بفضله من يشاء . وإن المؤمن منهم يعتز بدينه وبرسالته ويسعد بمرضاة الله عنه ، ولا يهمه من كفر وأفسد فهو حامل رسالة لا يقعد عن أداء واجبه ما دامت الحياة. وإن ما يلحق المسلمين من أذى لا يعجزهم أو يشككهم في دينهم ولا يقعدهم عن العمل على خط نهج الدين الذي استقاموا عليه أول الأمر لعلمهم بأن دينهم الحق . والله ناصرهم مهما اشتدت الكروب وطالت الأزمان ، فالأمة المسلمة أمة صبر وحلم والله ولي الصابرين .

وهناك **حقائق جوهرية** يلزم لمن آمن بالله تعالى معرفتها وفهمها والعمل على أساسها ، عرضتها قبل الدخول إلى الحديث عن وسطية الإسلام وتوسط أمّة الإسلام ليساعد في إقامتها على أسس صحيحة ومتينه .

حقائق أساسية : -

*** الإسلام دين ا**

الإسلام يعني إظهار الخضوع والقبول لما أتى نبي ا تعالي محمد ﷺ به ويقال أسلم لمن أنقاد وأخلص لدين ا (1) والمسلمون هم أتباع محمد ﷺ أظهروا الخضوع والقبول لدين الإسلام وأبطنوا الإخلاص وعملوا ما أمروا به ساعين لرضا ا عنهم، كما جاء ذكرهم في التوراة. قال ﷻ: ﴿ محمد رسولُ ا ِ والذِين معه أَشِداء علَى الْكُفار رحماء بينَهم تَراهم ركعا سجدا يبتَغُون فَضلاً من ا ِ ورضوانًا سِيماهم فِي وجوهِهم من أَثَرِ السجودِ ذَلِك مثَلُهم فِي التوراةِ ... ﴾ الفتح (٢٩)

وصفة الإسلام ليست وقفاً على الدين الذي بعث به محمد ﷺ، بل هو صفة دعوة سائر الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه. لأن الديانات السماوية ذات اعتقاد واحد هو معتقد التوحيد ومبدؤها الأساسي الاستسلام الواحد الأحد.

لذا يقول ﷻ عن إبراهيم عليه السلام ﴿ ما كان إِبراهِيم يهودِيا ولاَ نَصرانِيا ولَكِن كان حنِيفًا مسلِما وما كان مِن الْمشْرِكِين ﴾ آل عمران (٦٧)

ونجد في دعائه ودعاء ولده إسماعيل عليهما السلام ﴿ ربنَا واجعلْنَا مسلِمين لَك ومِن ذُريتِنَا أُمةً مسلِمةً لَك وأَرِنَا منَاسِكنَا وتُب علَينَا إِنك أَنتَ التواب الرحِيم ﴿١٢٨﴾ ربنَا وابعثْ فِيهم رسولاً منْهم يتْلُو علَيهم آياتِك ويعلمهم الْكِتَاب والْحِكْمةَ ويزكيهِم إِنك أَنتَ الْعزِيز الحكِيم ﴾ البقرة (١٢٨ – ١٢٩)

أي أجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك وابعث فيهم رسولاً من أنفسهم. فاستجاب ا دعاءهما ببعثه محمد ﷺ يقرأ آيات ا يعلم المسلمين القرآن والسنة النبوية المطهرة.

وا دعا إبراهيم إلى الإسلام فأسلم لرب العالمين قال ﷻ البقرة ﴿ إِذْ قَالَ لَه ربه أَسلِم قَالَ أَسلَمتُ لِرب الْعالَمِين ﴾ (١٣١)

وتضمن معنى الإسلام وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما : قال ﷻ ﴿ ووصى بِها إِبراهِيم بنِيهِ ويعقُوب يا بنِي إِن ا َ اصطَفَى لَكُم الدين فَلاَ تَموتُن إَلا وأَنْتُم مسلِمون ﴾ البقرة (١٣٢)

وكذلك جاء في حوار يعقوب وأبنائه عند إشرافه على الموت قال ﷻ ﴿ أَم كُنْتُم شُهداء إِذْ حضر يعقُوب الْموتُ إِذْ قَالَ لِبنِيهِ ما تَعبدون مِن بعدِي قَالُوا نَعبد إِلَهك وإِلَه آبائِك إِبراهِيم وإِسماعِيلَ وإِسحاقَ إِلَها واحِدا ونَحن لَه مسلِمون ﴾ البقرة (١٣٣)

وكذلك سيدنا نوح ﷻ أمر أن يكون من المسلمين فأسلم فنجاه ا ومن معه في الفلك. قال ﷻ ﴿ واتْلُ علَيهِم نَبأَ نُوحٍ ... إلى قوله ... فَإِن تَوليتُم فَما سأَلْتُكُم من أَجرٍ إِن أَجرِي إِلا علَى ا ِ وأُمِرتُ أَن أَكُون مِن الْمسلِمِين ﴾ يونس (٧١ – ٧٢)

---

(1) المعجم الوسيط مادة سَلَمَ

إما يوسف عليه السلام فقد دعا لما أتم الله عليه نعماءه فقال تعالى ﴿ ... أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يوسف (١٠١)

أما نبي الله سليمان عليه السلام وهو من أنبياء بني إسرائيل، تحدث عن الملكة بلقيس فقال: قال تعالى ﴿ ... وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ النمل (٤٢) وأما بلقيس فقالت : قال تعالى ﴿ ... وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل (٤٤) أي أنها خضعت لرب العالمين.

كما حدث رسل الله إلى إبراهيم عليه السلام عمن اهتدى من قوم لوط قال تعالى ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الذاريات (٣٦)

أما بالنسبة لأهل الكتاب وهم:

أولاً: اليهود: فقد جاء مسمى الإسلام في

قول فرعون معلناً التوبة والإيمان حينما أدركه الغرق قال تعالى ﴿ ... حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس (٩٠)

قول السحرة الذين ضللهم فرعون لإبطال سحر موسى عليه السلام فلما عجزوا عن ذلك. سجدوا لله معلنين الاستسلام لرب موسى وهارون. قال تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ الأعراف (١٢٥ – ١٢٦)

ثانياً: النصارى " أنصار سيدنا المسيح عليه السلام "

١- الحواريون: قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ المائدة (١١١)

ثالثا: اليهود والنصارى: الذين عاصروا النبي محمد ﷺ فوجدوا في القرآن مثل ما وجدوا في الإنجيل والتوراة حين نزولها قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ القصص (٥٢ – ٥٣)

وعليه فإن دين الإسلام هو دين لعامة الناس وهو رسالة جميع الأنبياء فلا فرق بين اعتقاد دين وآخر وبين دين رسول ورسول فماذا قال محمد رسول الله ﷺ ؟

قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام (١٦١ – ١٦٣)

أي قل يا محمد لمن يكذب دينك إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم، الدين المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الحنيفة السمحة. وقل يا محمد إن صلاتي التي أعبد بها ربيوما أقوم من نسك (ذبائح) ومناسك في العبادة وحياتي وما أقدمه فيها من خيرات وطاعات لله رب العالمين. مخلصاً في عباداتي لله وحده وأنا أول من أقر وأذعن وخضع لله جل وعلا فهو مالك الملك ولا يليق أن أتخذ إلها غيره(2).

(2) صفوة التفاسير جـ١ / ٤٠٠

والإسلام دين جميع الناس لأنه دين ا   وا   هو رب العالمين فحينما يأتي لفظ الإسلام في أقوال الأنبيـاء والصالحين يجيء معها لفظ رب العالمين، فهو الواحد الذي يستحق خضوع العالمين له مما يشير إلـى عموميـة رسالة الإسلام. وصدق ا ﷻ القائل في كتابه ﴿ إِن الدين عِنْدَ ا ِ الإِسلاَم ... ﴾ آل عمران (١٩)

* حاجة الناس إلى الدين

حين أهبط ا تعالى أبانا آدم على الأرض، التي قضى وحكم أن تكون مستقره هو وزوجه وذريته، بـين أن على الآدميين أن يتبعوا ما ينزل عليهم من هدى سماوي، وأنهم محاسبون على أعمالهم يوم الحساب بعد الموت والبعث ويكون حسابهم بحسب التزامهم بتعليمات ا   التي تأتيهم مع الأنبياء والرسل الذين يبعثهم ا ، جل شـأنه، لهداية الناس.

قال ﷻ ﴿ قُلْنَا اهبِطُوا مِنْها جمِيعا فَإِما يأْتِينكُم مني هدى فَمن تَبِع هداي فَلاَ خَوفٌ علَيهِم ولاَ هم يحزنُـون ﴿٣٨﴾ والذِين كَفَروا وكَذبوا بِآياتِنَا أُولَئِك أَصحاب النارِ هم فِيها خَالِدون ﴾ البقرة (٣٨ – ٣٩)

إذا الحساب أمر واقع لا محالة، والعمل بما ينزل ا   على رسوله فريضة لاستقامة الحيـاة، وإن طاعـة الرسل واجبة، لأن ما جاء به الرسول من عند ا   وإذا لم يطع الرسول فكيف تستقيم الحياة، ويفيد الهدى، ويثمـر الإيمان با .

قال ﷻ ﴿ وما أَرسلْنَا مِن رسولٍ إِلا لِيطَاع بِإِذْنِ ا ِ ... ﴾ النساء (٦٤)

وإن الإيمان بيوم الحساب والحساب على أعمال الناس، هو الضابط على تصرفات الناس. فالخوف من ا   ومن عقابه له تأثير على سعي الناس وسلوكهم، وكذلك الرجاء بثواب ا   ورضوانه له تأثير كبير في ذلك الأمـر وعليه فإنما بعث الأنبياء والرسل للدعوة إلى الإيمان بوحدانية ا تعالى والاستسلام والخضوع له ولإنذار العصاة المكذبين بالعقاب ولتبشير المؤمنين الذين أحسنوا في إتباع الرسل بالثواب والجزاء العظيم.

قال ﷻ ﴿ الر كِتَاب أُحكِمتْ آياتُه ثُم فُصلَتْ مِن لدن حكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلا تَعبدوا إِلا ا َ إِنَّنِي لَكُم منْه نَـذِير وبشِير ﴾ هود (١ – ٢)

ومسألة الإيمان با تعالى مسألة بديهية (3) يدركها الإنسان لأنه عاقل ومفطور على الإيمان بخالقه.

قال ﷻ ﴿ ذَلِكُم ا ُ ربكُم خَالِقُ كُل شَيءٍ لا إِلَه إِلا هو فَأَنى تُؤْفَكُون ﴾ غافر (٦٢)

ويكون الإيمان با تعالى مبعثاً لكل خير وفضيلة لذا كان من إتمام دعوة الرسول الأمر بالمعروف والخير والصلاح والنهي عن كل منكر وشر وفساد.

قال ﷻ ﴿ وإِلَى مدين أَخَاهم شُعيبا قَالَ يا قَومِ اعبدوا ا َ ما لَكُم من إِلَهٍ غَيره ولاَ تَنقُصوا الْمِكْيالَ والْمِيزان إِني أَراكُم بِخَيرٍ وإِني أَخَافُ علَيكُم عذَاب يومٍ محِيطٍ ﴿٨٤﴾ ويا قَومِ أَوفُوا الْمِكْيالَ والْمِيزان بِالْقِسـطِ ولاَ تَبخَسـوا الناس أَشْياءهم ولاَ تَعثَوا فِي الأَرضِ مفْسِدِين ﴾ هود (٨٤ – ٨٥)

وقال ﷻ ﴿ ولُوطًا إِذْ قَالَ لِقَومِهِ أَتَأْتُون الْفَاحِشَةَ وأَنتُم تُبصِرون ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُم لَتَأْتُون الرجالَ شَهوةً من دون النساءِ بلْ أَنتُم قَوم تَجهلُون ﴾ النمل (٥٤ – ٥٥)

---

(3) قضايا اعترف بها ولا يحتاج في تأييدها إلى قضايا أبسط منها / المعجم الوسيط مادة بَدَهَ

لذا كان العمل بهديهم وبما جاءوا به من عند ا لازم ولا خيار فيه.

قال ﷻ ﴿ وجاء فِرعون ومن قبله والمُؤْتَفِكاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فعصوا رسولَ ربهم فَأَخَذَهم أَخْذَةً رابِيـةً ﴾ الحاقة (٩ – ١٠)

وهدى الأنبياء هو طريق السعادة والفلاح، قال ﷻ ﴿ ... وإن تُطِيعوه تَهتَدوا ... ﴾ النور (٥٤)

ويتصف هدى ا بأنه عام للناس أجمعين، لم يحرم منه قوم لأن كل الناس مهما اختلفـوا، خلـق ا رب العالمين (4) قضى سبحانه بهدايتهم جميعاً ، لعدله تعالى ولا تفاضل بينهم إلا على أعمالهم.

قال ﷻ ﴿ ولَقَد بعثْنَا فِي كُلِّ أُمةٍ رسولاً أَن اعبدوا ا َ واجتَنِبوا الطاغُوتَ(5) ... ﴾ النحل (٣٦)

أما الأقوام التي كفرت با أو أشركوا به وأصروا على أفعالهم المنكرة الفاسدة أهلكهم ا تعالى.

قال ﷻ ﴿ ثُم أَرسلْنَا رسلَنَا تَتْرى كُلما جاء أُمةً رسولُها كَذبوه فَأَتْبعنَا بعضهم بعضا وجعلْنَاهم أَحادِيثَ فَبعدا لقَومٍ لا يؤْمِنُون ﴾ المؤمنون (٤٤)

وما كان ا مهلكهم إلا إذا جهد الأنبياء في دعوتهم وهداهم وإصلاحهم وتحقق لهـم معجـزات سـألوها واشترطوها لإيمانهم وطاعتهم الأنبياء.

قال ﷻ ﴿ أَلَم يأْتِهِم نَبأُ الَّذِين مِن قَبلِهِم قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمود وقَومِ إِبراهِيم وأَصحابِ مـدين والْمؤْتَفِكَـاتِ أَتَتْهم رسلُهم بِالْبينَاتِ(6) فَما كَان ا ُ لِيظْلِمهم ولَكِن كَانُوا أَنْفُسهم يظْلِمون ﴾ التوبة (٧٠)

ولم يهلكوا إلا بعدما يستنفذ نبيهم الأمل في هداهم، فهذا نوح ﷺ دعا قومه ألف سنة تقريباً وعايش مـنهم أجيالاً، فما آمن له إلا قليل منهم .

قال ﷻ ﴿ وقَالَ نُوح رب لا تَذَر علَى الأَرضِ مِن الْكَافِرِين ديارا ﴿٢٦﴾ إِنك إِن تَذَرهم يضِلوا عِبادك ولا يلِدوا إِلا فَاجِرا كَفارا ﴾ نوح (٢٦ – ٢٧)

أي أن نوحاً ﷺ سأل ربه إهلاكهم، وإنما فعل ذلك لأنه عرف طباعهم وجربهم وكان الرجل ينطلق بابنه ويقول: يا بني احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشـأ الصـغير علـى ذلك(7).

وفوق هذا كانت الأقوام حين ينذرهم رسولها بالعذاب والهلاك جزاء الكفر والعصيان تسـتعجل العـذاب لجهلهم وسفههم قال ﷻ (عن قوم هود ﷺ): ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عن آلِهتِنَا فَأْتِنَا بِمـا تَعِـدنَا إِن كُنـتَ مِـن الصادِقِين ﴾ الأحقاف (٢٢)

قال ﷻ (عن قوم صالح ﷺ) ﴿ ... وقَالُوا يا صالِح ائْتِنَا بِما تَعِدنَا إِن كُنتَ مِن الْمرسلِين ﴾ الأعـراف (٧٧)

---

(4) العالمين: اسم جنس واحد له من لفظه، ويشمل الأنس والجن والملائكة والشياطين صفوة التفاسير جـ ١ / ١٩

(5) الطاغوت: الطاغي المعتدي أو كثير الطغيان والشيطان – المعجم الوسيط مادة طغي

(6) المعجزات / صفوة التفاسير جـ ١ / ٥٠٦

(7) (٢) سفوة التفاسير جـ ٣/ ٤٣٠

وقال ﷻ (عن قوم لوط ﵇) ﴿ ... فَما كان جواب قَومِهِ إلا أَن قَالُوا ائْتِنَـا بِعـذَابِ ا ـ إن كُنـتَ مِـن الصادِقِين ﴾ العنكبوت (٢٩)

وقال ﷻ (عن قوم محمد ﷺ) ﴿ وإذْ قَالُوا اللهم إن كان هذَا هو الْحق مِن عِنْدِك فَأَمطِر علَينَا حِجارةً مـن السماءِ أَو ائْتِنَا بِعذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأنفال (٣٢)

وقال ابن كثير: هذا من جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى أن يقولوا " اللهم إن كان هـذا هـو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لإتباعه ولكنهم استعجلوا العذاب والعقوبة لسفههم " (8) وهذا دليل واضح علـى أثر الإيمان في عقول الناس وتفكيرهم فالحمد على هداه.

* دين أهل الكتاب

أما بنو إسرائيل فقد جاءهم الكثير من الرسل قال ﷻ ﴿ لَقَد أَخَذْنَا مِيثَاقَ بنِي إِسرائِيلَ وأَرسلْنَا إِلَيهِم رسلاً كُلما جاءهم رسولٌ بِما لاَ تَهوى أَنْفُسهم فَرِيقًا كَذبوا وفَرِيقًا يقْتُلُون ﴾ المائدة (٧٠)

والفريق لفظ يدل على الكثرة (9)

وقد بعث أنبياؤهم على نفس مبدأ جميع الرسل الذين سبقوهم، ألا وهو الإقرار بوجود ا والإيمـان بـه والاستسلام والخضوع له والعمل بأوامره وطاعة واحترام الرسل.

فنبي ا سليمان أحد أنبيائهم آتاه ا الملك والنبوه وآتاه من السلطان ما لم يؤت أحد بعده وقال ﷻ ﴿ قَـالَ رب اغْفِر لِي وهب لِي ملْكًا لا ينبغِي لأحدٍ من بعدِي إِنك أَنتَ الْوهاب ﴿٣٥﴾ فَسخرنَا له الريح تَجرِي بِأَمرِهِ رخَاء حيثُ أَصاب ﴿٣٦﴾ والشياطِين كُل بناءٍ وغَواصٍ ﴿٣٧﴾ وآخَرِين مقَرنِين فِي الأَصفَادِ ﴿٣٨﴾ هذَا عطَاؤُنَا فَامنُن أَو أَمسِك بِغَيرِ حِسابٍ ﴾ ص (٣٥ – ٣٩)

فما شكل الهدى الذي جاء به لنبي إسرائيل ... إننا من التدقيق والإطلاع في قصة إسلام بلقيس ملكة سبأ، يتحدد لنا اتجاه هديه ودعوته.

فمنذ جاء طير الهدهد وهو أحد طيور ملكة سليمان، وأعلن خبر بلقيس ودولتها أحسسنا بدفء الإيمان.

قال ﷻ ﴿ وجدتها وقَومها يسجدون لِلشمسِ مِن دون ا ـ وزين لَهم الشيطَان أَعمالَهم فَصدهم عـن السـبِيل فَهم لاَ يهتَدون ﴿٢٤﴾ أَلا يسجدوا ـ الذِي يخْرِج الْخَبء فِي السماواتِ والأَرضِ ويعلَم ما تُخْفُـون ومـا تُعلِنُـون ﴿٢٥﴾ ا ُ لاَ إِلَه إِلا هو رب الْعرشِ الْعظِيمِ ﴾ النمل (٢٤ – ٢٦)

فهذا هدهد سليمان يعلن أن ا تعالى هو المتفرد بالعظمة والجلال رب العرش الكريم المسـتحق للعبـادة والسجود.

وإذا قرأنا سطور رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس وقومها، وجدنا فوح عبير الإيمان.

وقال ﷻ ﴿ قَالَتْ يا أَيها الْملأُ إِني أُلْقِي إِلَي كِتَاب كَرِيم ﴿٢٩﴾ إِنه مِن سلَيمان وإِنَّـه بِسـمِ ا ـ الـ رحمن الرحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلا تَعلُوا علَي وأْتُونِي مسلِمِين ﴾ النمل (٢٩ – ٣١)

---

(8) صفوة التفاسير جـ ١ / ٤٦٦

(9) الفرقة: الطائفة من الناس والفريق أكثر منهم (الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / مادة فَرَقَ)

إن سليمان عليه السلام افتتح رسالته بالبسملة وهو استفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية ، ثم دعا إلى توحيد الله والاستسلام والانقياد لأمره(10).

ولما أرسلت بلقيس هديتها لسليمان عليه السلام لتختبر رد فعله ولتعرف أي رجل هو. فرد سليمان وبين أنه يريد إسلامهم لا مالهم.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل (٣٦ – ٣٨)

فرد سليمان ما لديه من مال وملك واسع ونبوة إلى الله تعالى وإنما هم يفرحون بالهدية لأنهم أهل مكـاثرة ومفاخرة في الدنيا وأن ما يهمه تحولهم عن عبادة الشمس إلى عبادة الله وحده.

وها هي بلقيس التي أسلمت واتبعت الدين الذي دعاها إليه سليمان تعلن عن ندمها في عبادتهـا للشـمس وجعل ولائها لغير رب العالمين.

قال تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل (٤٤)

أما ما آتاه الله من نعمائه وفضله فقد عبر في شكرها تعبيراً جميلاً يستحق أن يقتدى بـه أهـل الإيمـان والإحسان.

قال تعالى ﴿ ... وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَـلَ صَـالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ النمل (١٩)

ولم ينس أن يسأل الله أن يلهمه ويوفقه لعمل الخير الذي يقر به من الله ويرضيه عنه.

أما نبي الله يوسف عليه السلام وهو احد أنبياء بني إسرائيل، والذي قص الله قصته في كتابه الكريم، وفي سورة يوسف تحديداً، وجدناه محافظاً على بذرة الإيمان بالله وحده، والتي ألقاها فيه أبوه النبي يعقوب عليه السلام فترعرعـت وأزهرت ولم ينحرف عن الإيمان بالله ، على الرغم مما تعرض له من ظلم وقسوة إخوته وما فرض عليـه مـن غربة وبعد عن أبيه وذويه سنين طويلة، وما تعرض له من كيد وظلم وأسر، فنرى أنه قد أخذ على نفسه الـدعوة إلى الله حتى وهو في السجن يتحدث عن دينه ودين آبائه ويقارنه بدين الشرك الدارج آنذاك. فهو من بيت النبـوة وعليه واجبات الدعوة !!

قال تعالى ﴿ ... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ يوسف (٣٧ – ٣٨)

وقد أرجع يوسف عليه السلام الفضل في إكرام آبائه بالرسالة ثم عمم هذا الفضل فبين أنه على النـاس جميعـاً لان غايته هدايتهم. لكن الناس لم يقدروا ذلك ولم يشكروا الله على فضله، بل أنهم أشركوا معه غيره !!

قال تعالى ﴿ ... ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ يوسف (٣٨)

---

(10) صفوة التفاسير جـ٢ / ٣٧٤

ثم أخذهم بالإقناع والحجة، فا هو الواحد الأحد المتفرد بالعظمة والجلال المستحق أن يتخذ ولياً والحكـم له والأمر له أمر بعبادته وحده.

قال ﷻ ﴿ يا صاحِبي السجن أأرباب متفَرقُون خَير أَمِ ا ُ الْواحِد الْقَهار * ما تَعبدون مِن دونِهِ إِلا أَسماء سميتُموها أَنْتُم وآباؤُكُم ما أَنْزلَ ا ُ بِها مِن سلْطَانٍ إِن الْحكْم إِلا ِ أَمر أَلا تَعبدوا إِلا إِياه ذَلِك الدين الْقَيم ولَكِن أَكْثَر الناسِ لا يعلَمون ﴾ يوسف (٣٩ – ٤٠)

أي أن عقيدة التوحيد هي الدين القويم الذي لا عوج فيه، ولما أنعم ا عليه وتم فضل ا عليـه بالعمـل والملك وجمعه بأهله قال داعياً ربه قال ﷻ ﴿ رب قَد آتَيتَنِي مِن الْملْكِ وعلمتَنِي مِن تَأْوِيـل الأحادِيـثِ فَـاطِر السماواتِ والأرضِ أَنتَ ولِيي فِي الدنْيا والآخِرةِ تَوفَنِي مسلِما وأَلْحِقْنِي بِالصالِحِين ﴾ يوسف (١٠١)

فالمؤمن حين الحاجة يدعو إلا ربه لأنه من يتولاه في حياته ومماته وفي الأول والآخـر وقـد اعتـرف يوسف عليه السلام بفضل ا وحمده على ذلك وهذا من دعائم الإيمان الخالص با . وقد دل ختام دعائه علـى رزانـه تفكيره ورجاحة عقله " بأن يحفظ ا عليه إسلامه ويختم له دنياه بخير".

إذا عقيدة يوسف عليه السلام عقيدة التوحيد الخالص ودينه هو الدين القويم وهو الإسلام الذي لا إفراط فيـه ولا تفريط بل نهج وسط.

وأما موسى عليه السلام فقد أرسل إلى بني إسرائيل بالتوراة، قال ﷻ ﴿ وآتَينَا موسى الْكِتَاب وجعلْنَاه هدى لِبنِي إِسرائِيلَ ... ﴾ الإسراء (٢)

وبعث إلى فرعون الطاغية لدعوته إلى ا ومفاوضته بتحرير بني إسرائيل من قبضة فرعون، فما كانـت دعوة موسى عليه السلام؟ إن موسى عليه السلام كان يدعو فرعون للإيمان با رب العالمين، مثل سائر الأنبياء والرسل.

قال ﷻ ﴿ وقَالَ موسى يا فِرعون إِني رسولٌ من رب الْعالَمِين ﴾ الأعراف (١٠٤)

وحين تساءل فرعون عن مفهوم هذه (العبارة؟ بين له موسى وهو يحاوره، أن رب العالمين هـو خـالق السموات والأرض والمتصرف فيهما وهو خالق ما بنيهما من مخلوقات. قال ﷻ ﴿ قَالَ رب السماواتِ والأرضِ وما بينَهما إِن كُنْتُم موقِنِين ﴾ الشعراء (٢٤)

وهو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم، فلما نسب إليه فرعون الجنون لفت نظره إلى حركة الكواكب والنجوم قال ﷻ ﴿ قَالَ رب الْمشْرِق والْمغْرِبِ وما بينَهما إِن كُنْتُم تَعقِلُون ﴾ الشعراء (٢٨)

أي أن ا هو الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب فهذا المشهد يومي وهو مـدعاة للتفكر، فلما لم يفد فرعون من مناظرة النبي المرسل أظهر موسى الآيات البينة والمعجزات التي أيده ا بها.

هذا هو اعتقاد موسى، فهل به زيغ أو انحراف عن اعتقاد سائر المسلمين والأنبيـاء والمرسـلين وهـل بدعوته شيء من الشرك؟!

إن موسى عليه السلام كان مثال الأخ الناصح والحكيم والرشيد عرف كيف يردع قومه عن غيهم وجهلهم حينما كانوا يضعونه أمام مفاجآت لم تخطر ببال!!

قال ﷻ ﴿ وجاوزنَا بِبنِي إِسرائِيلَ الْبحر فَأَتَوا علَى قَومٍ يعكُفُون علَى أَصنَامٍ لهم قَالُوا يا موسى اجعل لنَا إِلَها كَما لَهم آلِهةٌ قَالَ إِنكُم قَوم تَجهلُون * إِن هؤُلَاءِ متَبر ما هم فِيهِ وباطِلٌ ما كَانُوا يعملُون * قَالَ أَغَير الله أَبغِيكُم إِلَها وهو فَضلَكُم علَى الْعالَمِين ﴾ الأعراف (١٣٨ – ١٤٠)

فهو إذ تعجب منهم ومن قولهم فقد استحسنوا ما رأوا من ملازمة قوم لعبادة صنم فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى!! وإنما عجب أنهم طلبوا هذا على إثر ما رأوا من المعجزة الخارقة التي أهلك الله بها فرعون ونجاهم من شره وبطشه وأغدق عليهم من النعم العظيمة، فبين لهم: " أن هذا دليل جهلكم بعظمة الله الذي تعبدونه " ونزهه أن يكون له ند أو شريك، إن عبادة الأصنام دين باطل وعملهم باطل لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة، وذكرهم بما أنعم الله عليهم من نصره لهم وجعلهم أفضل أهل زمانهم.

وحين أتخذ بعض قومه العجل إلهاً في حال غيابه. دعا موسى ربه وإذا لم يدع المسلم ربه فمن يدعو؟ قال ﷻ ﴿ قَالَ رب اغْفِر لِي ولأَخِي وأَدخِلْنَا فِي رحمتِك وأَنتَ أَرحم الراحِمِين ﴾ الأعراف (١٥١)

هذا ما كان من أمر موسى عليه السلام فهل كان مشركاً أم كان مؤمناً بالله مخلصاً في إيمانه!! قال ﷻ ﴿ واذْكُر فِي الْكِتَابِ موسى إِنه كَان مخْلَصا وكَان رسولاً نبِيا * ونَاديناه مِن جانِبِ الطورِ الأيمن وقَربنَاه نَجِيا * ووهبنَا لَه مِن رحمتِنَا أَخَاه هارون نَبِيا ﴾ مريم (٥١ – ٥٣)

... وهذا عيسى بن مريم عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل، جاءهم بالإنجيل قال ﷻ ﴿ وقَفينَا علَى آثَارِهِم بِعِيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديهِ مِن التوراةِ وآتَينَاه الإِنْجِيلَ فِيهِ هدى ونُور ومصدقًا لما بين يديهِ مِن التوراةِ وهدى وموعِظَةً للْمتقِين ﴾ المائدة (٤٦)

وجاءهم بآيات بينات باهرات دالات على قدره الله ليزداد بنو إسرائيل إيماناً ويكون بعثه ليصححوا مسيرتهم وما اعترها من خروج عن الصراط المستقيم وبنسب الولد إلى الله تعالى كقولهم " عزيز ابن الله " واتخاذهم الأحبار مشرعين وتركهم العام بما أنزل الله في التوراة واختلافهم، وكان مما أيد الله به من آيات خلقه من غير أب وكلامه وهو في المهد وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وقدرته.

فاختلف فيه رغم ما جاء به من بينات، إن ما قال المسيح بن مريم وهو في المهد – بإذن الله :-

قال ﷻ ﴿ فَأَشَارتْ إِلَيهِ قَالُوا كَيفَ نُكَلم من كَان فِي الْمهدِ صبِيا * قَالَ إِني عبد الله آتَانِي الْكِتَاب وجعلَنِي نَبِيا * وجعلَنِي مباركًا أَينَما كُنتُ وأَوصانِي بِالصلاةِ والزكَاةِ ما دمتُ حيا * وبرا بِوالِدتِي ولَم يجعلْنِي جبارا شَقِيا * والسلام علَي يوم وُلِدت ويوم أَموتُ ويوم أُبعثُ حيا ﴾ مريم (٢٩ – ٣٣)

هذا الكلام يجب أن يعتمد من بني إسرائيل لأنه معجزة وخارقة – تكلم الطفل في المهد – فقوله " إني عبد الله كذب الافتراء التي استعدوا له لما رأوا مريم تحمل طفلها، وما كان " يجب أن ينفض جمعهم إلا على إيمانهم بهذا المرسل الذي سيكون آتاه الله الكتاب وجعله نبياً ". ألم يسمعوا بآذانهم أم أنهم كانوا صماً!!

وفيما تحدث عيسى ابن مريم وهو في المهد – أعلن عن صفاته فهو رجل عابد دائم على أداء صلاته وزكاه ماله كما أمره الله تعالى. وهو بار بأمه لما لها من الفضل عليه، وإنسان متواضع غير متكبر فالكبر ليس من صفات الأنبياء. وهو عابد لله يعيش ويموت ويبعث كسائر الناس.

ثم قال ﷻ ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ مريم (٣٤ – ٣٥)

فولادته من مريم عليها السلام دليل بشريتها وبشريته، فهي خلق من خلق الله ، أما كون عيسى بغير أب فكذلك آدم ﷺ خلقه الله من غير أب ولا أم وتلك مشيئة الله سبحانه.

قال ﷻ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران (٥٩)

فإن الله تعالى إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخر ولا حاجة إلى ما سبب وإنما يقول له كن فيكون !! وإن جاء به عيسى بن مريم من آيات ومعجزات تدل على أنه مرسل من الله كما أتى بقية الرسل.

قال ﷻ ﴿ ... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران (٤٩)

إن من واجب من عاصروا هذا الحدث، ورأوا آيات الله على يد رسوله، أن يطيعوا هذا الرسول ويعملوا بما جاء به من دعوة التوحيد الخالص لأن طاعة الرسول من طاعة مرسله وهو رب العالمين.

قال ﷻ ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الزخرف (٦٣ – ٦٤)

إن كل ما جرى لم يشرح صدور بني إسرائيل وارتضوا لأنفسهم الكفر وتكذيب الرسول وتآمروا عليه ليقتلوه. فما يكون جزاء هؤلاء وأمثالهم؟!

قال ﷻ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ آل عمران (٢١ – ٢٢)

* رسالة محمد ﷺ

بعث الله تعالى محمداً في العرب، وأنزل إليه القرآن الكريم مصدقاً لما جاء من آيات وهدي في كل من التوراة والأنجيل.

قال ﷻ ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ المائدة (٤٨)

(قال ابن كثير: اسم المهيمن يتضمن أنه أمين وشاهد وحكم على كل كتاب قبله، جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره(11))

وهذه سنة فما من نبي بعثه الله إلا جاء مصدقاً لم سبقه من الأنبياء، وما جاء كتاب سماوي إلا كان مصدقاً لما جاء قبله من كتب وصحف، لأنه كما سبق أن استخلصنا أن الإسلام هو دين الله ، وأن الاستسلام ، والخضوع

---

[11] صفوة التفاسير جـ١ / ٣١٩

له هو مبدأ جميع الرسالات السماوية لأنها كلها من إله واحد، رب كل الأمم التي أرسل إليها الأنبياء والرسل، رب العالمين!!

وإنما يكون الخلاف بينهم فيما ينزل عليهم من شرائع، وكل أمة مكلفة بالعمل بما جاء به نبيهم ونزل في كتابهم. قال ﷻ ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ المائدة (٤٨)

لذا فإن الإسلام احترم الرسالات السابقة وجعل الإيمان بها شرط الانتماء لهذا الدين.

قال ﷻ ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران (٨٤)

وأمر المسلمون بالعمل بما جاء في كتابهم القرآن من أوامر والعمل بالأحكام التي جاءت فيه، واجتناب ما نهي عنه. قال ﷻ ﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ المائدة (٤٥)

أما عن طعن اليهود في الإسلام وسعيهم ليتبع المسلمون ملتهم، وكذلك النصارى، على اعتبارهم أن إتباع ملتهم هي الهدي الحقيقي فذلك وهم منطق مقلوب!!

قال ﷻ ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ البقرة (١٣٥)

قال ﷻ ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴾ البقرة (١٢٠)

أما أن يترك أصحاب محمد ﷺ دين الإسلام ويتبعوا ملة من سبقهم فهذا لم يكن ممكناً لعدة اعتبارات:-

أولاً: اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم فيعتقد كل منهم بضلال أهل الدين الآخر. قال ﷻ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ... ﴾ البقرة (١١٣)

أي أن كلا من الطائفتين كفر عن علم، فالمسيح مرسل لبني إسرائيل والإنجيل مصدق لما جاء في التوراة ولقد تشابهوا في ذلك مع عباد الأصنام الذين قالوا لمحمد ﷺ القول نفسه وهل يتساوى أهل الكتاب مع أهل الوثنية؟!

هذا إلى جانب أن ورثة التوراة يختلفون فيما بينهم، وقد جاء إليهم عيسى ليبين لهم بعض الذي اختلفوا فيه.

قال ﷻ ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الزخرف (٦٣)

وقال ﷻ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ النمل (٧٦)

فهم مختلفون بالمسيح فمنهم من آمن ومنهم من ذهب فيه مذاهب شتى.

قال ﷻ ﴿ ... وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ فصلت (٤٥)

منهم مكذب ومنهم ومؤمن به ... فهل يتحول أصحاب محمد ﷺ الذين جمعهم الإسلام إلى دين يتفرق الناس من حوله؟!!

ثانياً: أن محمد ﷺ عربي وبعث

وقال ﷻ ﴿ إِن هذَا الْقُرآن يقُص علَى بنِي إِسرائِيلَ أَكْثَر الَّذِي هم فِيهِ يخْتَلِفُون ﴾ النمل (٧٦)

فهم مختلفون بالمسيح فمنهم من آمن ومنهم من ذهب فيه مذاهب شتى. قال ﷻ ﴿ ... ولَقَد آتَينَا موسى الْكِتَاب فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ فصلت (٤٥) منهم مكذّب ومنهم ومؤمن به... فهل يتحول أصحاب محمد ﷺ الذين جمعهم الإسلام الي دين يتفرق الناس من حوله ؟!!

ثانيا: أن محمداً ﷺ عربي وبعث فيهم ليدعوهم إلى ا ويبنذرهم كغيرهم من الأمم وكما جرت سنة ا تعالي:

قال ﷻ ﴿ ولَقَد بعثْنَا فِي كُلِّ أُمةٍ رسولاً أَنِ اعبدوا ا واجتَنِبوا الطاغُوتَ ﴾ النحل (٣٦).

وأن كتابهم الذي أنزل عليه جاء بلسانهم. قال ﷻ ﴿ نَزلَ بِهِ الروح الأَمِين * علَى قَلْبِك لِتَكُون مِن الْمنْذِرِين *بِلِسانٍ عربِي مبِينٍ﴾ الشعراء (١٩٣- ١٩٥).

وإنما أرسل فيهم بشيراً ونذيرا حتى تنقطع الحجة عليهم فلا يقولوا يوم القيامة يا رب و لم ترسل إلينا منذراً كما أرسلت في غيرنا من الأمم.

قال ﷻ ﴿ وهذَا كِتَاب أَنْزلْنَاه مبارك فَاتَّبِعوه واتَّقُوا لَعلَّكُم تُرحمون *أَن تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتَاب علَى طَائِفَتَينِ مِن قَبلِنَا وإِن كُنَّا عن دِراستِهِم لَغَافِلِين﴾ الأنعام (١٥٥- ١٥٦).

فهل يعقل أن يدعو ديناً جاء بلسانهم إلى دين بلسان قوم آخرين.

ثالثاً: أن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات وأن سيدنا محمد ﷺ هو خاتم النبيين.

قال ﷻ ﴿ ما كَان محمد أَبا أَحدٍ مِن رِجالِكُم ولَكِن رسولَ ا وخَاتَم النَّبِيين﴾ الأحزاب (٤٠)

وأن القرآن جامع لمحاسن ما سبقه من كتب سماوية وزائد عليه من الكمالات والفضائل. قال ﷻ ﴿ وأَنْزلْنَا إِلَيك الْكِتَاب بِالْحق مصدقًا لِما بين يديهِ مِن الْكِتَابِ ومهيمِنًا علَيهِ﴾ المائدة (٤٨).فيه أخبار الأقوام السابقة وأخبار أنبيائهم وفيه بيان وإيضاح للشريعة وكل ما يهم الإنسان ويصلح له.

قال ﷻ ﴿ ونَزلْنَا علَيك الْكِتَاب تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ وهدى ورحمةً وبشْرى لِلْمسلِمِين﴾ النحل (٨٩)

رابعاً: أن رسالة الإسلام دين عامّ ولو أنه في العرب ، لأنه خاتم الرسالات فهو دين الأمم وأهل الأرض إلى يوم القيامة. قال ﷻ ﴿ يا أَيها النَّاس إِنِّي رسولُ ا إِلَيكُم جمِيعا الَّذِي لَه ملْك السماواتِ والأَرضِ لاَ إِلَه إِلا هو يحيِي ويمِيتُ فَآمِنُوا بِا ورسولِهِ النَّبِي الأُمي الَّذِي يؤْمِن بِا وكَلِماتِهِ واتَّبِعوه لَعلَّكُم تَهتَدون﴾ الأعراف (١٥٨).

أي أن الناس على اختلافهم مدعوون للدخول فيه ولا يصح بحال الخروج منه إلى غيره وهو الدين الذي ارتضاه ا جل جلاله للعالمين. قال ﷻ ﴿ومن يبتَغِ غَير الإِسلامِ دِينًا فَلَن يقْبلَ مِنْه وهو فِي الآخِرةِ مِن الْخَاسِرِين﴾ آل عمران (٨٥).

خامساً : أن الرسالات السابقة للإسلام بشرت به في كتبها السماوية والصحف كالتوراة والإنجيل.

قال ﷻ ﴿الَّذِين يتَّبِعون الرسولَ النَّبِي الأُمي الَّذِي يجِدونَه مكْتُوبا عِنْدهم فِي التَّوراةِ والإِنْجِيلِ﴾ الأعراف (١٥٧)

وقد جاءت هذه الآية لتبين أن ا يرحم ي وم القيامة متبعي هذا الدين والمؤمنين بهذه الرسالة. فليس هـذا فحسب بل إن ا تعالى أخذ العهد على أنبيائه بنصرة نبي الإسلام ونصرة أمره إذا بعث وهم أحياء.

قال ﷻ ﴿وإِذْ أَخَذَ ا ُ مِيثَاقَ النبِيين لَما آتَيتُكُم من كِتَابٍ وحِكْمةٍ ثُم جاءكُم رسولٌ مصدقٌ لما معكُم لَتُـؤْمِنُن بِه ولَتَنصرنه قَالَ أَأَقْررتُم وأَخَذْتُم علَى ذَلكُم إِصري قَالُوا أَقْررنَا قَالَ فَاشْـهدوا وأَنَـا معكُـم مـن الشـاهِدِين﴾آل عمران(٨١)

قال ابن عباس رضي ا عنهما: ما بعث ا نبياً من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث ا محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته (١٢) فإذا كان العهد قد أخذ على الأنبياء الإيمان بـه وبتأييده فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته (١٣) و إن هذا الأمر أعطى للدين الإسلامي ثقلاً ووزناً وأهمية لا يجوز بحال تركه واتباع غيره من الملل!!!

سادساً: أن العرب بعد نزول القرآن فيهم وجدوا اختلافاً في سلوك أهل الكتاب فبعد أن بشّروا بمبعث نبي في العرب كما جاء في كتبهم، كذبوا به لما جاءهم وقاوموه وسعوا لتشكيك العرب فيه وناصروا مشركي قـريش على محمد.

قال ﷻ ﴿ولَما جاءهم كِتَاب من عِنْدِ ا ِ مصدقٌ لما معهم وكَانُوا مِن قَبلُ يستَفْتِحون علَى الَذِين كَفَروا فَلَمـا جاءهم ما عرفُوا كَفَروا بِهِ فَلَعنَةُ ا ِ علَى الْكَافِرِين﴾ البقرة (٨٩)

أي كانوا يقولون اللهم أنصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان(١٤) وقد عللوا فعلهم هـذا بـأنهم أي اليهـود يكفيهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة. قال ﷻ ﴿وإِذَا قِيلَ لَهم آمِنُوا بِما أَنْـزلَ ا ُ قَـالُوا نُـؤْمِن بِمـا أُنْـزلَ علَينَا﴾البقرة ٩١)

فبين تعالى أنه لو كان كلامهم صدقاً، لما اتخذوا العجل إلهاً حين ذهابه إلى الطور.

قال ﷻ ﴿ولَقَد جاءكُم موسى بِالْبينَاتِ ثُم اتخَذْتُم الْعِجلَ مِن بعدِهِ وأَنْتُم ظَالِمون﴾ البقرة (٩٢)

سابعاً: إن بني إسرائيل كفروا بالقرآن على الرغم مما جاءهم من بينات واضحات وبراهين قاطعة أنّه من عند ا ، فقد حكى تاريخهم وأعمالهم ومخالفاتهم وما أنزل في كتبهم وأجاب على جميع تساءلاتهم التي سألوها نبي ا ليتحققوا من صدقه ووجدوا ما أنزل في القرآن موافقاً لما أتاهم كسؤالهم عن يوسـف عليـه السـلام، وأهـل الكهف،وذي القرنين.

ثامناً: حدثّ ا جل شأنه في كتابه الكريم المسلمين عن أخبار اليهود مع أنبيائهم وأورد صفاتهم التي كانت على قدرٍ من الوضاعة وسوء الحال مما نفّر المسلمين منهم، وا تعالى يقول الحق، ولا يظلم ربي أحداً.

([12]) صفوة التفاسير جـ١ / ١٩٥

([14]) صفوة التفاسير جـ ١ / ٦٨

إيذاء الأنبياء : قال ﷻ ﴿وإِذْ قَالَ موسى لِقَومِهِ يا قَومِ لِم تُؤْذُونَنِي وقَد تعلمون أَني رسولُ ا ِ إِلَـيكُم فَلَمـا زاغُوا أَزاغَ ا ُ قُلُوبهم وا ُ لاَ يهدِي الْقَوم الْفَاسِقِين﴾ الصف (٥)

عصيان الرسل: قال ﷻ ﴿وضرِبتْ علَيهِم الذلةُ والْمسكَنَةُ وباءوا بِغَضبٍ من ا ِ ذَلِك بِأَنهم كَانُوا يكْفُـرون بِآياتِ ا ِ ويقْتُلُون النبِيين بِغَيرِ الْحق ذَلِك بِما عصوا وكَانُوا يعتَدون﴾ البقرة (٦١)

الكفر با وتكذيب الرسل: قال ﷻ ﴿لُعِن الَّذِين كَفَروا مِن بنِي إِسرائِيلَ علَى لِسانِ داود وعِيسى ابنِ مـريم ذَلِك بِما عصوا وكَانُوا يعتَدون﴾ المائدة (٧٨).

يجهرون بالفواحش ولا يتناهون عن المنكرات (أي لا ينهي بعضهم بعضاً) : قال ﷻ ﴿كَانُوا لاَ يتَنَاهون عن منكَرٍ فَعلُوه لَبِئْس ما كَانُوا يفْعلُون﴾ المائدة (٧٩)

الجبن والعجز : قال ﷻ ﴿ يا قَومِ ادخُلُوا الأَرض المقَدسةَ الَّتِي كَتَب ا ُ لَكُم ولاَ تَرتَدوا علَـى أَدبـارِكُم فَتَنْقَلِبوا خَاسِرِين *قَالُوا يا موسى إِن فِيها قَوما جبارِين وإِنا لَن ندخُلَها حتى يخْرجوا مِنْها فَإِن يخْرجوا مِنْهـا فَإِنـا داخِلُون﴾ المائدة (٢١-٢٢).

وكانوا من سوء الأدب مع ا ورسوله أن قالوا.. قال ﷻ ﴿قَالُوا يا موسى إِنا لَن ندخُلَها أَبدا ما داموا فِيها فَاذْهب أَنتَ وربك فَقَاتِلا إِنا هاهنَا قَاعِدون﴾ المائدة (٢٤)

وكان الأجدى والأمثل أن يقولوا " أذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون" كما قال المهاجرون من

أصحاب محمد ﷺ في غزوة بدر (١٥) وقال الأنصار رضي ا عنهم: " لو استعرضت بنا هـذا البحـر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد وما نكره أن نلقي عدونا وإنا لصبر في الحرب صدق فـي اللقـاء لعل ا يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة ا " (١٦) وقاتلوا حتى أحرزوا النصر بإذن ا !!

الكذب والادعاء: فقد ادعوا أنهم أبناء ا وأحباؤه وقالوا : لا ذنوب لنا (١٧) وقال ﷻ ﴿قَالَـتِ الْيهـود والنصارى نَحن أَبنَاء ا ِ وأَحِباؤُه قُلْ فَلِم يعذبكُم بِذُنُوبِكُم بلْ أَنْتُم بشَر ممن خَلَقَ يغْفِر لِمن يشَاء ويعذب من يشَاء﴾ المائدة (١٨).

فهم يعملون ما يشاءون فلا عقاب لأن النار لن تمسهم إلا سبعة أيام تلك التي عبدوا فيها العجل قال ﷻ ﴿ ذَلِك بِأَنهم قَالُوا لَن تَمسنَا النار إِلا أَياما معدوداتٍ وغَرهم فِي دِينِهِم ما كَانُوا يفْتَرون﴾ آل عمران (٢٤).

وادعوا أن الجنة لا يدخلها إلا اليهود والنصارى قال ﷻ ﴿ وقَالُوا لَن يدخُلَ الْجنةَ إِلا من كَـان هـودا أَو نَصارى﴾ البقرة (١١١) فرد عليهم ﷻ ﴿ بلَى من أَسلَم وجهه ِ وهو محسِن فَلَه أَجره عِنْد ربهِ ولاَ خَوفٌ علَـيهِم ولاَ هم يحزنُون﴾ البقرة (١١٢).

---

(15) تهذيب سيرة ابن هشام ١٣٠

(16) تهذيب سيرة ابن هشام ١٢٠

(17) صفوة التفسير جـ/ ٢٥٧ من الطبري

الحرص على الموت وكراهية الموت: فحين ادعوا أنهم أهل الجنة ولا يدخل غيـرهم فيهـا خـاطبهم ا وطلب منهم أن يتمنوا الموت ما دام أن مصيرهم الجنة كما يزعمون. قال ﷻ ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُم الدار الآخِرةُ عِنْدَ ا خَالِصةً من دون الناسِ فَتَمنوا الْموتَ إِن كُنْتُم صادِقِين *ولَن يتَمنوه أَبدا بِما قَدمتْ أَيدِيهم وا ُ علِيم بِالظالِمِين﴾ البقرة (٩٤-٩٥)

قال ﷻ ﴿ ولَتَجِدنهم أَحرص الناسِ علَى حياةٍ ومِن الَذِين أَشْركُوا يود أَحدهم لَو يعمر أَلْفَ سنَةٍ ومـا هـو بِمزحزِحِهِ مِن الْعذَابِ أَن يعمر وا ُ بصِير بِما يعملُون﴾ البقرة(٩٦)

الجزع وقلة الصبر: لم يصبروا على طاعة ا ورسله فقتلوا بعضهم وهموا بقتل البعض كالمسـيح مـثلاً لولا أن ا رفعه إليه.ولم يصبروا عن المنهيات فاضطرهم ذلك إلى العبث بكتابهم وتغيير الأحكام والتحريف.

قال ﷻ ﴿ ومِن الَذِين هادوا سماعون لِلْكَذِبِ سماعون لِقَومٍ آخَرِين لَم يأْتُوك يحرفُون الْكَلِم مِن بعدِ مواضِعِهِ ﴾ المائدة (٤١).

وفشلوا في الابتلاءات التي امتحن ا صدق عقيدتهم بها كاقبالهم على تعلم السحر في عهد سليمان عليـه السلام عندما أرسل ملكين يعلمانهم حتى يفرقوا بين المعجزة والسحر.

قال ﷻ ﴿ واتبعوا ما تَتْلُو الشياطِين علَى ملْكِ سلَيمان وما كَفَر سلَيمان ولَكِن الشياطِين كَفَـروا يعلمـون الناس السحر وما أُنْزِلَ علَى الْملَكَين بِبابِلَ هاروتَ وماروتَ﴾ البقرة (١٠٢) (١٨)

وتحايلهم على الصيد في قصة أصحاب السبت. قال ﷻ ﴿ واسأَلْهم عن الْقَريةِ الَتِي كَانَتْ حاضِرةَ الْبحرِ إِذْ يعدون فِي السبتِ إِذْ تَأْتِيهِم حِيتَانُهم يوم سبتِهِم شُرعا ويوم لاَ يسبِتُون لاَ تَأْتِيهِم كَذَلِك نَبلُوهم بِما كَـانُوا يفْسـقُون﴾ الأعراف (١٦٣).

أي أن الأسماك كانت تكثر في ماء البحر يوم السبت وهو يوم عبادتهم وحرم ا علـيهم فيـه الصـيد، فاحتالوا على ذلك بأن اتخذوا حياضاً ووضعوا فيها مصائد للسمك فإذا جاء السبت نشبت بتلك الحبائل لكثرتهم فإذا جاء مساء السبت أخذوها. (١٩)

---

(18) أن السحره في عهدهم امترعوا فنوناً غريبه من الحسر وزعم بعضهم أنهم أنبياء، فبعث الله الملكين ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة. ويعرفوا أن الذين يدعون النبوه كذباً إنما هم سحره لا أنبياء. صفوة التفاسير جـ/ ٧٤

(19) لُباب التفسير من ابن كثير جـ ١ / ٤٧

الغلو: أي وضع الأمر في غير مكانه وجاوز الحد. فهم بين إفراط وتفريط . فالمسيح عليه السلام هو عبد ا ورسوله، فمن قال إنه ابن زنا فهذا تفريط لأنه أعطاه أقل من حقه ووضعه في صفة بذيئة لا يمكن أن تصـبح بحال. وأما من قال إنه إله أو ابن إله أو أحد ثلاثه، فقد أعطاه من التقديس والتعظيم ما ليس له. قال ﷻ ﴿ يا أَهلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُم ولاَ تَقُولُوا علَى ا ـِ إِلا الْحق إِنما الْمسِيح عِيسى ابن مريم رسولُ ا ـِ وكَلِمتُه أَلْقَاها إِلَـى مريم وروح منْه فَآمِنُوا بِا ـِ ورسلِهِ ولاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهوا خَيرا لكُم إِنما ا ُ إِلَه واحِد سبحانَه أَن يكُون لَه ولَد لَـه ما فِي السماواتِ وما فِي الأَرضِ وكَفَى بِا ـِ وكِيلاً﴾ النساء (١٧١) ويندرج تحت هذه الصفة مـا أعطـى بنـو إسرائيل أحبارهم ورهبانهم منزلة فوق منزلتهم التي أنزلهم ا فواجبهم عبادة ا وطاعته والعمل بما أنـزل فـي الأنجيل والتوراة لا تغيير آياتها.وتغيير كلامها وتبديل ما جاء فيها، فلما فعلوا ذلك وأحلوا الحرام وحرموا الحلال وقبلت العامة وأطاعتهم دخلوا معهم في دائرة الحرام فكأنهم عبدوهم. لما نزل قوله ﷻ ﴿ ولاَ يتخِذَ بعضنَا بعضـا أَربابا من دون ا ـِ﴾ آل عمران (٦٤).

قال عدي بن حاتم ما كنّا نعبدهم يا رسول ا ، فقال رسول ا ﷺ " أما كانوا يحلّـون لكـم ويحرمـون فتأخذون بقولهم " فقال عدي : نعم فقال النبي ﷺ هو ذاك (٢٠) هذا إلى جانب تسلطهم على الأموال العامة وكانوا يمنعون الناس من دخول الإسلام.

قال ﷻ﴿ يا أَيها الَذِين آمنُوا إِن كَثِيرا من الأَحبارِ والرهبان لَيأْكُلُون أَموالَ الناسِ بِالْباطِلِ ويصـدون عـن سبِيل ا ـِ﴾ التوبة (٣٤)

وكذلك الغلو في العبادة كالانقطاع عن الشهوات والنساء واتخاذ الصوامع أي الرهبانية التي أحدثوها بغيـة إرضاء ا من عند أنفسهم أي شقّوا على أنفسهم وألزموا أنفسهم أكثر مما طلب ا منهم ومن ألزم نفسه بشئ يلزم منه أن يقوم به تمام القيام. كالنذر من نذر أمراً فوق طاقته ألزم بالوفاء به ، فهو قد شدد على نفسه فشدد ا عليه.

قال ﷻ ﴿ ثُم قَفينَا علَى آثَارِهِم بِرسلِنَا وقَفينَا بِعِيسى ابن مريم وآتَينَاه الإِنْجِيلَ وجعلْنَا فِـي قُلُـوبِ الـذِين اتبعوه رأْفَةً ورحمةً ورهبانِيةً ابتَدعوها ما كَتَبنَاها علَيهِم إِلا ابتِغَاء رِضوان ا ـِ فَما رعوها حق رِعايتِها فَآتَينَا الَذِين آمنُوا مِنْهم أَجرهم وكَثِير منْهم فَاسِقُون﴾ الحديد (٢٧)

من أجل ذلك كان لا بد من دين للناس مذهبه التوسط ف يكل أمر كما في دين ا الإسلام. كي يسـتطيع الإنسان عبادة ا وهو راضٍ وسعيد لا شقي ومحروم مما خلق ا وما ركب فيه من حب الشهوات.

ولما كان الإسلام دين عدل ومثال توسط واستقامه ما ظلم أحداً من أهل الكتاب، بل أثنى سبحانه على من استحق منهم الثناء ورضى عنهم ووعدهم بما وعد به عبادة الصالحين من خير وحسن ثواب يوم القيامـة ويـوم الحساب والجزاء.

قال ﷻ ﴿ لَيسوا سواء من أَهل الْكِتَابِ أُمةٌ قَائِمةٌ يتْلُون آياتِ ا ـِ آنَاء الليل وهم يسجدون *يؤْمِنُون بِا ـِ والْيومِ الآَخِرِ ويأْمرون بِالْمعروفِ وينْهون عن الْمنْكَر ويسارعون فِي الْخَيراتِ وأُولَئِك مِن الصـالِحِين*ومـا يفْعلُوا مِن خَيرٍ فَلَن يكْفَروه وا ُ علِيم بِالْمتقِين﴾ آل عمران (١١٣- ١١٥)

---

(20) صفوة التفاسير جـ١/ ١٩٠

وقال ﷻ ﴿ وإن مِن أَهل الْكِتَابِ لَمن يؤْمِن بِا ـ وما أُنْزِلَ إِلَيكُم وما أُنزِلَ إِلَيهم خَاشِعِين ـ لاَ يشْتَرون بِـ آياتِ ا ـ ثَمنًا قَلِيلاً أُولَئِك لَهم أَجرهم عِنْد ربهم إِن ا َ سريع الْحِسابِ﴾ آل عمران (١٩٩).

قال ابن عباس والحسن رضي ا عنهم نزلت في النجاشي/ ملك الحبشة/ أنه لما مات نعاه جبريل لرسول ا ﷺ لاصحابه: " قوموا فصلّوا على أخيكم النجاشي " (٢١) .

قال ﷻ ﴿ لَتَجِدن أَشَد الناسِ عداوةً للذِين آمنُوا الْيهود والذِين أَشْركُوا ولَتَجِدن أَقْربهم مودةً للـذِين آمنُـوا الذِين قَالُوا إِنا نَصارى ذَلِك بِأَن مِنْهم قِسيسِين ورهبانًا وأَنهم لا يستَكْبِرون * وإِذَا سمِعوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرسول تَرى أَعينَهم تَفِيض مِن الدمعِ مِما عرفُوا مِن الْحق يقُولُون ربنَا آمنا فَاكْتُبنَا مع الشاهِدِين* وما لَنَا لاَ نُؤْمِن بِا ـ وما جاءنَا مِن الْحق ونَطْمع أَن يدخِلَنَا ربنَا مع الْقَومِ الصالِحِين*فَأَثَابهم ا ُ بِما قَالُوا جناتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأَنْهار خَالِـدِين فِيها وذَلِك جزاء الْمحسِنِين﴾ المائدة (٨٢-٨٥)

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه لأنهم حين تلا عليهم جعفر ﷺ بـن أبـي طالـب رضي ا عنه بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلّوا لحاهم (٢٢) رضي ا عمن عرفوا الحقّ فآمنوا به، رضي ا عن سلمان الفارسي ورضي ا عن عبد ا بن سلام ورضي ا عن النجاشي ملك الحبشة ورجالاته، ورضـي ا تعالى على كل من عرف الحق وآمن به من أهل الكتاب.

فمن أمن من بني إسرائيل فقد أحسن لنفسه أي أنه المستفيد باتباعه ديناً قويماً لا عوج فيه ولا انحراف،ولا يخالطه شرك با ، ومن لم يؤمن منهم فالخسارة تقع عليه، حين جانب الحق وانحرف إلى الكفر والضلال قال ﷻ ﴿ من اهتَدى فَإِنما يهتَدِي لِنَفْسِهِ ومن ضل فَإِنما يضِل علَيها ولاَ تَزِر وازِرةٌ وِزر أُخْرى﴾ الإسراء (١٥).

إن ما جاء به الأنبياء عليهم السلام هو توحيد ا تعالى وإن ما زاد على ذلك فهو ليس من الدين. فانتظام الكون واستتباب أحوال الكائنات على وتيرة واحدة دلّ على وحدانية ا .

قال ﷻ ﴿ لَو كَان فِيهِما آَلِهةٌ إِلا ا ُ لَفَسدتَا فَسبحان ا ـ رب الْعرشِ عما يصِفُون﴾ الانبياء (٢٢)

إن للإنسان في كل يوم تطلع فيه الشمس وتغيب وتظهر النجوم وسط السماء وتدبر ألف شاهد على أن من يحكم هذا الكون إله واحد لا إلهان يتنافران ويتنازعان ويحوش كل واحد ما خلق وملك.

قال ﷻ ﴿ أَفَبِالْباطِلِ يؤْمِنُون وبِنِعمةِ ا ـ يكْفُرون﴾ النحل (٧٢)

قال ﷻ ﴿ ما اتخَذَ ا ُ مِن ولَدٍ وما كَان معه مِن إِلَهٍ إِذًا لَذَهب كُلُّ إِلَهٍ بِما خَلَقَ ولَعلاَ بعضهم علَى بعضٍ سبحان ا ـ عما يصِفُون﴾ المؤمنون (٩١).

ولو أنّه تعالى اتخذ ولداً لأخبر عن ذلك في كتبه ولكنه نفى عن نفسه ذلك واثبت أنه الواحد الأحد، قهـر الأشياء فدانت وخضعت له تبارك.

قال ﷻ ﴿ لَو أَراد ا ُ أَن يتخِذَ ولَدا لَاصطَفَى مِما يخْلُقُ ما يشَاء سبحانَه هو ا ُ الْواحِد الْقَهار﴾الزمر (٤)

(21) صفوة التفاسير جـ ٢٢٢/١

(22) صفوة التفاسير جـ١ / ٣٣٤ عن ابن كثير، واخضلوا هكذا وردت من المصدر

ولو اتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك، لم يتمكن أحد من قتلهِ أو صلبه أو إيذائه. إن هذا مخالف للمنطق ، بل المسيح عبد ا ورسوله كما أخبرنا ﷻ ﴿ إِنما الْمسِيح عِيسى ابن مريم رسولُ ا ِ وكَلِمتُه َألْقَاها ِإلَـى مـريم وروح منْه فَآمِنُوا بِا ِ ورسلِهِ ولاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انْتَهوا خَيرا لكُم إِنما ا ُ إِلَه واحِد سبحانَه َأن يكُون لَه ولَد لَه ما فِي السماواتِ وما فِي الأَرضِ وكَفَى بِا ِ وكِيلاً﴾ النساء (١٧١)

هذه هي عقيدة الإسلام عقيدة تلائم الفطرة والعقل والفكر الصائب السليم ،ودين الإسلام ديـن سـمح وا تعالى يغفر لكل من تاب واصلح فهو الغفور الرحيم.

قال ﷻ ﴿ َأفَلاَ يتُوبون إِلَى ا ِ ويستَغْفِرونَه وا ُ غَفُور رحِيم﴾ المائدة (٧٤) في ماضي بينت وفيما الهمني ا تعالى لأهل الكتاب ما منَع المسلمين صحابة رسول ا ﷺ من إجابة دعوتهم للانتماء إلى ملتهم ،ولما كنّا بأمر ا مؤتمرين وعلي آثار رسولنا ﷺ مقتدين ومستنيرين بأعمال صحابة رسول ا ﷺ ومستأنسين، لا نجد مفراً من أن نحيي أمر ا لرسوله بدعوة أهل الكتاب إلى شأن نتساوى فيه نحن وهم بأن نفرد العبادة وحده لا شريك له، ولا يطيع أي منا أحداً في معصية ا .

قال ﷻ ﴿ قُلْ يا َأهلَ الْكِتَابِ تَعالَوا إِلَى كَلِمةٍ سواءٍ بينَنَا وبينَكُم َألا نَعبد إِلا ا َ ولاَ نُشْرِك بِهِ شَيئًا ولاَ يتخِذَ بعضنَا بعضا َأربابا من دون ا ِ فَإِن تَولوا فَقُولُوا اشْهدوا بِأَنا مسلِمون﴾ آل عمران (٦٤).

إن اتفاقنا في هذه المسأله أمر يسرنا فإن لم يشأ ا ولم يتم ذلك فالحمد على أنّا آمنا با وحـده ومـن سعادتنا ورضانا أنّا مسلمون، وا جل جلاله يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه يوم القيامة فاللهم أجرنا من خـزي الدنيا وعذاب الآخره.

رسالة: الإسلام أمة وسط

الوسط:

الوسط من كل شيء أعدله[1]، ووسط الشيء هو ما بين طرفيه وهو منه "المعتدل من كل شيء، " وأمـةً وسطاً أي عدولاً وخياراً، والرجل من وسط قومه: من خيارهم[2].

والتوسط في كل أمر الاعتدال فيه، والاعتدال مشتق من العدل أي إعطاء كل ذي حق حقه – والوقوف في كل أمر وكل صفة بين الزيادة عليها والنقص فيها، وفي ذلك التباعد عن كل صفة مذمومة، والإقامة عند كل صفة ممدوحة بل عند الوسط منها، فلكل أمر ممدوح طرفان أحدهما إفراط في هذا الأمر أي زيادة فيه، والطرف الآخر تفريط فيه أي نقص، والوسط أبعد شيء عن الأطراف المذمومة ومن هنا كان خير الأمور أوسطها:

---

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مادة وسط.
(2) المعجم الوسيط، مادة وسط.

تفريط فيه	أمر ممدوح	إفراط فيه
(إنقاص)	(توسط)	(زيادة)

ولقد عرف العرب هذا الأمر، ففي كل أمة نبهاء، وفي كل زمان عاقلون. قال رجل لابن عباس رضي ا عنهما: إن العرب تقول: "حب التناهي شطط وخير الأمور الوسط، فهل هذا موجود في القرآن ؟ قال: نعـم فـي أربعة مواضع[٣] وذكرها.

ولقد عرف الناس اليوم بفضل علمهم وثقافتهم فضل الاعتدال في المحافظـة علـى أمـوالهم وأخلاقهـم وعافيتهم ودينهم، فاتخذوه منهجاً لحياتهم، ونصح به أولي الألباب والعلماء الخيرون والصالحون من سائر النـاس على اختلاف مللهم ومذاهبهم، مما دلّ على اتفاق أمر التوسط مع الفطرة البشرية والعقل.

- **الوسطية سمة الأمة الإسلامية:**

خاطب تعالى المسـلمين بقولـه: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...". البقرة (١٤٣).

وقد كان نزول هذه الآية الكريمة بعدما جاء الأمر بتحويل قبلة صلاة المسلمين من بيت المقدس "وهي قبلة أهل الأديان الأخرى" إلى البيت الحرام بمكة، وما تلا ذلك من اعتراض من اليهود، وتشكيك ضـعاف الإيمـان. قال تعالى: " سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ [٤] مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ..." البقرة (١٤٢).

وجاء جوابه تعالى واضحاً لا لبس فيه ولا غموض فبين الحقّ في أمر تحويل القبلـة: " قُل للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ". البقرة (١٤٢).

ثم نزل القرآن بهذه الشهادة: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...". البقرة (١٤٣).

قال جماعة المفسرين: الوسط: الخيار أو العدول، يكون لهم التقدم يوم القيامة بما أطاعوا ا تعالى ونهجوا نهجه وساروا على صراطه المستقيم، واعتدلوا فما تطرفوا، فيشهدون للأنبياء على أممهم أنهم بلّغوهم ما أمـرهم ا بتبليغه إليهم، يشهدون بما أعلمهم ا في كتابه[١]. أخرج البخاري في صحيحه أن رسول ا ﷺ قال: "يـدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلّغكـم؟ فيقولون ما جاءنا من نذير. فيقول من يشهد لك؟ يقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلّغ".[٢]

وشهادة المسلمين على تبليغ الأنبياء رسالة ربهم إلى أقوامهم شرف اختصت به الأمة المسلمة لخيارها.

وإذا كانت الأمة المسلمة أمةً وسطاً بشهادة ا تعالى فإن سمة دين الإسلام الوسطية ... فهو دين التوازن والاعتدال في كل الآفاق:

---

(3) من وصايا الرسول/ مجلد٢ / ٧٦٨ ، وهذه المواضع، ٦٩ البقرة، ٢٧ الإسراء، ١٠ الفرقان، ٦٧ الفرقان.

(4) السفهاء: جمع سفيه: وهو الجاهل ضعيف الرأي قليل المعرفة بالمنافع والمضار / صفوة التفاسير ج١/ ٨٩.

(1) زبدة التفسير من فتح القدير / سورة البقرة.

(2) صفوة التفاسير ج١/ ٩١.

أ. الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد.

ب. الاعتدال بين مباعث الدين ومطالب الدنيا.

- **مباعث العمل للحياة الدنيا والعمل لما بعد الموت:**

قال تعالى: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ". القصص (٧٧).

فالمطلوب من الإنسان أن يعمر الأرض وأن يدفع عجلة الحياة إلى الأمام، ويسعى في مناكب الأرض لالتماس الرزق. قال تعالى: " فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ". الملك (١٥). والعمل بالحرف النافعة بشرط أن لا يشغله هذا السعي عن حق الروح، ولا تشغله مطالب الجسد عن حقائق الآخرة والحساب. " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ...".القصص (٧٧). وقوله تعالى: " أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ".القيامة(٣٦).

فلا ينسى في غمرة الحياة والسعي، من أجل الجسد وتلبية رغباته، أنه مقبل على الحساب. قال تعالى: " وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ". الحشر (١٩).

فقد خسر وا من نسي وشد بطرف الدنيا ومطالبها وأهمل الطرف الآخر (الآخرة وحسابها) فأطاع هواه وجرى خلف شهواته فلم يعبأ إن كان ما يغترف من الدنيا حراماً أم مباحاً. قال تعالى: " وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ". الكهف (٢٨).

فرسالة الإسلام تهتم بالجمع بين الدين والدنيا وتدعو إلى ذلك حتى لا يؤدي الانشغال بالدنيا إلى نسيان ا .

والخروج عن خط الاعتدال في أي أمر، إسرافٌ فيه. وقد امتدح ا تعالى أصحاب الأنبياء الذين عرفوا حقيقة الربوبية وفهموا مرامي الأديان إلى التوسط في الأمور فدعوا ا تعالى أن يغفر لهم خروجهم عن هذا المبدأ الذي التزموا به. قال تعالى: " وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ...". آل عمران (١٤٧).

فالإسلام بدعوته إلى التوسط في كل أمر، حرر الإنسان من قيود الحرمان من المتع والرغبات والشهوات التي ركب ا في نفسه الميل إليها، كما حرره من قيود العبودية لهذه الشهوات فلا يحرم من تلبيتها ولا يقبل عليها إقبالاً يجعله عبداً لها، ويعمل على أساسها، بل يأخذ من المتع بالقدر الذي أحلّه ا ، ويرضى لنفسه بالطيبات منها ويأبى الخبائث. قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ...". البقرة (١٧٢).

وقال جلّ من قائل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ...". البقرة (٢٦٧).

فالمباح طيب والحرام خبيث بينهما الشرع، ورسم الدين الحنيف الحدود التي يلتزم بها المسلم فلا يتعداها إلى خارج دائرة الطيبات إلى ما ينكره الشرع وينهى عنه الشارع الحكيم، وهذا الأمر ليس بشاق على الإنسان بل هو ضمن طاقته ومقدرته، متناسب مع ما فُطِر عليه من الاستعداد للخير. قال تعالى: " لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ". التين (٤). والتزام الإنسان بالبقاء ضمن دائرة الطيبات خير له وخروجه عن محيطها شر له ولغيره.

والدين هو النهج القويم الذي لبى نداء الفطرة عند الإنسان بقدرٍ لا يقلّ فتنمحي الفطرة، - ولا يزيد – فتتعطّل، وجعل للإنسان الرقابة على نفسه في التزامه حدود ا في كل أمر، فلا يغفل. قال تعالى: " ونَفْسٍ وما سواها* فَألْهمها فُجورها وتَقْواها* قَد أَفْلَح من زكاها* وقَد خَاب من دساها ". الليل (٧-١٠).

ويعين الإنسان على مراقبة نفسه، علاقته بربه بالذكر والعبادة. فمهمة العبادة: الأخذ بيد الإنسان حتى لا يكون انشغاله في رغباته مغرقاً إياه في النسيان. قال تعالى: " وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا " الكهف (٢٨). لذا كان من المتعارف عليه أن نسمي المفرط - الخارج عن الاعتدال - غافلاً.

- **التوسط في نظرة الإسلام:**

عندما أرسل ا محمداً ﷺ بالإسلام إلى أهل مكة، أراده ديناً لكافة الناس، منذ ذلك الحين لآخر الزمان. قال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ". سبأ (٢٨).

ولما كانت الوسطية منهاج هذا الدين، كان صالحاً لكافة الأمم، فاعتنقه العرب والعجم وطبقوا تكاليفه بيسر وسهولة، وكان للأمة المسلمة دائماً، في المشكلات التي تواجه الإنسان، بسبب اختلاف العصر والأحوال، قول يعمل به المسلمون ويحترمه أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى سراً وربما علانيةً. وكانت نظرته الجمع بين الدين والدنيا، وبين المادة والروح، وبين الفكر والتجربة وبين الفردية والجماعية. وظل الإسلام شامخاً كالطود العظيم إزاء كل التيارات المذهبية والاعتقادية التي مرت به عبر العصور.

فكيف جمع الإسلام بين هذه المتضادات إن صح التعبير؟

إن الإسلام منهج رباني سماوي، يقوم على علم ا المطلق بما يصلح لخلقه وإرادته جل شأنه في أن يفيد الإنسان من كل ما خلق له من جسم وعقل وروح وما أوجد له من كون واسع فسيح ودنيا يعيش فيها أو آخرة يجزى فيها؛ فبين النافع من كل شيء ووعظ الإنسان الأخذ به، وبين الضار في كل شيء وحذّر الإنسان من الاقتراب منه، والحكمة أن نأخذ مما نجد النافع وندع الضارّ، فإن عمل الإنسان بذلك فقد امتثل لحكمة الحكيم، أما من أبى فقد أدخل نفسه في تجارب تخطئ وتصيب، وأقحم نفسه في صعوبات ومشاقّ وأهوال غالباً ما ينتهي منها إلى الندم والاعتراف بالجهل والخطأ.

أولاً: الإسلام بين المادة والروح:

إن ا تعالى لما خلق جسم الإنسان المادي بطبعه وركّب فيه تلك الغرائز، وهي الميل الفطري إلى ما يمتعه وما يشتهيه، أمر بإشباع تلك الرغبات إشباعاً دون إشباع الحيوانات لغرائزها، نظراً لأن الإنسان له دور في الحياة ورسالة سامية على الأرض، ألا وهي حمل الأمانة التي حمله ا إياها، وهي إقامة شرع ا في أرضه: فالانصراف إلى اتخام الغرائز وتلبية مطالبها دون حدود، يعوق هذه المهمة التي انتدب لها الإنسان، أما الحيوان فليس له من حياته هدف يحققه وأكبر غاياته إشباع غرائزه.

فإلى جانب المادة التي جبل منها الإنسان، هناك الروح وهي النفخة الإلهية التي بها يحيا الإنسان وبدونها لا تتم له حياة، فهي سر حركته ونشاطه وبقائه، فهي نعمة، بل أكبر النعم وأغلاها على الإطلاق. وهي نعمة ا

وفضله على سائر الكائنات الحية، والحيوانات لا تُدرك هذا الفضل وقيمة هذا المن والعطاء. أما الإنسـان، بمـا فضله ا على كثير ممن خلق، فيظل أسير هذا العطاء والإحسان ويبقى مرتبطاً بإله واحد خلقه وأكرمـه ونعمـه وبرأه في أحسن صورة وتقويم.

فهو يتوجه إليه في كل حين، ويلقاه في كل جمال وكمال وحق، ويناجيه في خلواته ويخشع له في صلواته ويخضع له في أوامره، ويلجأ إليه في الملمات وبه يناضل. ويرى أنواره ولو أظلمت الحياة من حوله، وبه يقـوى ولو حاربه العالم، يدعوه فيجده رباً عدلاً كريماً ودوداً يذكر من يذكره ويحب من أحبه ويتقبل عبادة من يخلص له ويرضى لمن عمل على نهجه ويجيب سائله، ويحسن للمحسن ويعفو عن المسيء إذا ما آب إليه عفو غفور حلـيم يعطي الفرصة للرجوع إليه، بذكره تستريح النفس من عناء الحياة وهمومها، ويطمئن القلب وبدعائه ينفض المرء عن نفسه متاعبها ويطفئ غليلها فتستريح وتجدد عزيمتها لما يلقى من الإجابة : " وَقَـالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِـي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ". غافر (٦٠).

ويعمل الإسلام على السمو بالروح في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى عمل الخيـر والصلاح، ولو حد ذلك من غرائزه، كالمنفق في سبيل ا ولو كلّفه ذلك الحد من غريـزة حـب التملّـك عنـده، وكالمجاهد في سبيل ا بنفسه ولو كلّفه ذلك الحد من غريزة حب الحياة عنده، لما يعلمان ما يعِدهما ا تعالى من فضل كبير ونعمة عظيمة في جناته يوم الحساب. قال تعالى: "يا أَيها الذِين آمنُوا هلْ أَدلكـم علَـى تِجـارةٍ تُنْجِيكُم من عذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُون بِا ِ ورسولِهِ وتُجاهِدون فِي سبِيل ا ِ بِأَموالِكُم وأَنْفُسِكُم ذَلِكُم خَيـر لكُم إِن كُنْتُم تَعلَمون* يغْفِر لَكُم ذُنُوبكُم ويدخِلْكُم جناتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأَنْهار ومساكِن طَيبةً فِـي جناتِ عدنٍ ذَلِك الْفَوز الْعظِيم". الصف (١٠-١٢).

ودعا الإسلام إلى الإيمان بالغيب وجعله شرطاً لازماً للإيمان با فتصديق ا وكتابه وما جاء بـه مـن آيات حدثت عن الملائكة "الم* ذَلِك الْكِتَاب لاَ ريب فِيهِ هدى لِلْمتقِين* الذِين يؤْمِنُون بِالْغَيبِ ويقِيمون الصلاَةَ ومِما رزقْنَاهم ينْفِقُون* والذِين يؤْمِنُون بِما أُنْزِلَ إِلَيك وما أُنْزِلَ مِن قَبلِك وبِالآخِرةِ هم يوقِنُون* أُولَئِك علَى هـدى مـن ربهِم وأُولَئِك هم الْمفْلِحون ". البقرة (١-٥).

وءامنوا بغيب ا إيماناً به وتصديقاً له وخشوا عقابه وسخطه دون أن يروه أو يروا عقابه لمـا أدركـوا حقيقة وجوده من خلقه وهيمنته على كل شيء، فعملوا للنجاة من النار دون أن يروها. فاستحقوا مـن ا غفـران ذنوبهم وثواباً جزيلاً على ما استشعروا من صدق الخالق وعظمته. قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ". الملك (١٢).

فإن لخشيته تعالى أثر في أخلاق الإنسان وأعماله، فمن خشي ا لا يعمل إلا الخير والمعـروف ويـدع المنكر والشر والأذى والفواحش ويكون صالحاً بحبه الآخرين وتعاونه معهم وتخلّيه عن أنانيته.

... هكذا وفي هذا الجو الإيماني حلّقت أرواح المؤمنين با في جنّته التي وصفها لهم في كتابه، وتـاقوا للقياها والعيش فيها فحد ذلك من حبهم للدنيا وما فيها وأقبلوا على السعي لرضى ا رجاء خير عميم وعِدوه حتى أصبحوا بنورانية الملائكة أو كادوا.

وبهذا جمع الإسلام بين المادة والروح في صورة أشرقت فيها الروح التي هي مـن أمـره تعـالى: " قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ". الإسراء (٨٥).

ثانياً: الإسلام بين الدين والدنيا:

لقد وجد الإنسان في الأرض ليحيا مرحلة من وجوده، هي الحياة الدنيا يعمل فيها ما يحلو له ويزاول فيها سائر نشاطاته، يواجه مصاعبها ويقتحم متاعبها، ويتكيف مع أحوالها، حتى يرتحل فينقطع عنها وينتقل لما بعدها.. إلى مرحلة أخرى ينتهي فيها السعي وتقديم الجهد، ويقيم فيها بما سعى في دنياه، ولم يترك الإنسان في الدنيا وحده لا يدري ما يزين أعماله وما يشينها، بل كانت أبواب السماء موصولةٌ به توجهه وترشده وتهديـه طـرق الخيـر وتدعوه إليها، وطرق الشر وتنهاه عنها .. وهذا هو عمل الرسل الذين نزل عليهم ذكر ا وآياته. وكان الأصـل في كل رسالة سماوية توجيه نظر الإنسان إلى الحياة الثانية أي المرحلة الأخرى من الحياة والتي تفـوق الحيـاة الدنيا أهمية، وهي التي يعمل لأجلها ويلقى الإنسان فيها جزاء سعيه إن شراً فشر وإن خيراً فخير. وبينت الرسالة الإسلامية ذلك في كتاب ا الكريم. قوله تعالى: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآَخِرَةَ ...". القصص (٧٧).

وإن جملة التعليمات السماوية التي بعث بها الأنبياء هي الدين. وأُمِر المسلم أن يعمل على اتخـاذ الـدين منهاجاً لحياته فيأتمر بكافة أوامره وينتهي بنواهيه ويعد له ذلك عباده، فالعبادة معنى يشـمل جميـع الطاعـات سواء كانت العبادات المعروفة (الصلاة – الصوم – الزكاة – الحج – العمرة – الـذكر). أو فـي (الأخـلاق أو المعاملات أو الأعمال ... الخ).

الإسلام بين كل شيء يهم الإنسان في حياته، وسن من الأحكام ما يكفي ليحيا الإنسـان حياتـه بصـورة صحيحة وبكيفية سليمة ارتضاها له ا تعـالى. " ... وَنَزَّلْنَـا عَلَيْكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانًـا لِّكُلِّ شَـيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَـةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ". النحل (٨٩).

وما نرى اليوم من انصراف الناس – بصفة عامة – عن إقامة الدين الذي أمروا بإقامته. قال تعـالى: "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...". وعزوفهم عن العمل بأحكام هذا الدين العظيم، ليس دليلاً على عجز الدين عـن مجاراة الحياة الحاضرة، بل إن دين الإسلام يمتاز بأهليته لجميع الخلق مهما اختلفت أزمانهم.

وقد اعتنق كثير من الناس الإسلام من مختلف الشعوب والبلاد، وعملوا بأحكامه وسعدوا فلم تشقّ عليهم بل كانت متفقة مع فطرتهم التي خلقوا عليها. ولنا في صحابة رسول ا ﷺ أعظم الأمثلة، وكذا التابعين وتابعيهم يحرصون على أداء عباداتهم بالكيفية التي علمهم رسول ا ﷺ إياها. ولكن البعض منهم كانوا يعملون على زيادة عبادتهم، من صوم وصلاة اجتهاداً منهم وينقصون من حقوقهم الشخصية، يتعبون أجسامهم، ويحرمون أنفسهم مما أباح ا لها. أي يميلون مع الدين ضد الدنيا، وهذا بطبيعة الحال مخالف لسنة دين الإسلام، الذي قام على التوازن

في كل شيء، والتوسط والاعتدال في كل أمر، لأن في ذلك سعادة الروح والجسد، أما الميل إلى أحد الأمرين دون الآخر فذلك الشقاء الآجل أو العاجل، وهذا ما نبه إليه الإسلام وحذّر منه في قوله تعالى: "فَأَما من طَغَى* وآثَر الْحياةَ الدنْيا* فَإِن الْجحِيم هِي الْمأْوى". النازعات (٣٧-٣٩). فإن التعلّق بالدنيا ونسيان حقوق ا ضرر، لأن الدنيا تفنى، وتبقى دار الآخرة والحساب حيث يقيم الناس بحسب التزامهم بشرع ا . وكل يجازى بحسب ما في ميزانه من الصالحات كما قدرها ا تعالى. ولذلك يقول تعالى: " وابتَغِ فِيما آتَاك ا ُ الدار الآخِرةَ ولاَ تَنس نَصِيبك مِن الدنْيا ". القصص (٧٧).

أي أن عليه أن يقدم للخالق حقوقه ويلتزم بطاعته والاستجابة مع جملة أحكامه، وإلى جانب ذلك لا ينسى حظّه وحقوق نفسه فيمتع نفسه إمتاعاً معتدلاً بما أحل ا . فيعطي لجسده حق الراحة ولنفسه حق إمتاعها ولأهله من هم في مسؤوليته أن يقوم لهم بكل حقوقهم.

فالمسلم الحق هو الذي يوازن بين مطالب الدين ومطالبه الدنيوية، فالمغالاة في أمور الدين ليست من الإسلام، بل إن الإسلام حذّر منها وأنحى باللائمة على أهلها، قال ﷺ : "هلك المتنطعون[1]". مسلم.

ويفهم المسلم أن باب التقرب إلى ا بالعبادة باب مفتوح يدخل منه بقدر استعداده واستطاعته، ولا يقحم نفسه بأكثر من طاقته وفي ذلك يقول ﷺ : "مه[2] عليكم من الأعمال بما تطيقون، فوا لا يملّ ا حتى تملّوا". متفق عليه عن عائشة رضي ا عنها. وكان ﷺ مربي المسلمين وأستاذهم وقدوتهم، لا يشق على نفسه ويختار السهل اليسير إذا ما كان في وضع خيار.

قالت السيدة عائشة رضي ا عنها: "ما خُير رسول ا ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً". متفق عليه. وعن أبي هريرة رضي ا عنه قال رسول ا ﷺ : "لولا أنّي أخاف أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة". مسلم.

ينأى بنفسه وأمته عما يشق عليهم لعلمه أنّهم جبلوا على حب الدنيا ولا يستطيعون إهمالها.

وهكذا جمع الإسلام بين الدين والدنيا في صورة يشرق فيها الدين لأنه يمتاز أيضاً بأنه شامل لمعاني الحياة، والدنيا زائلة لا محالة. ففهم المسلمون الأوائل هذا المعنى وعزفوا عن زخرف الحياة وقشورها وكمالياتها وأدركوا أنهم في رحلة، فهم يواصلون الرحيل. ممتثلين بقول رسول ا ﷺ : "الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر". مسلم.

ثالثاً: الإسلام بين الفردية والجماعية:

إن أمة الإسلام لا تميل مع مذهب منهما دون الآخر بل تدعو الفرد للعمل على المحورين، فتدعو الجماعة لإعطاء الفرد حقّه في العمل والنشاط لتحقيق شخصيته وكيانه ويكون مسؤولاً عن نفسه يتمتع بمكاسبه ويحظى

---

[1] المتنطعون: المتعمّقون، والمتشددون في غير موضع التشدّد.
[2] مَهْ: اسم فعل أمر بمعنى اكفف وهي كلمة نهي وزجر / المعجم الوسيط.

بحقه في الحرية والتقدير ودعم الجماعة. يقول تعالى: " لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...". البقرة (٢٨٦). وقوله تعالى: " وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ". الأنعام (١٦٤).

ويقدر جماعة المسلمين العامل النشيط الذي لا يتّكل على جهد غيره، وله دور في الحياة. قـال ﷺ : "لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكفّ ا بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه". البخاري.

ويقدرون من لا ينظر إلى ما في أيدي غيره ولا يطمع فيما عند الناس. يقول رسول ا ﷺ لسائله: "ازهد في الدنيا يحبك ا وازهد فيما عند الناس يحبك الناس". ابن ماجه / حديث حسن.

ويوقّرون العالِم، فعن ابن مسعود البدري الأنصاري رضي ا عنه: قال رسـول ا ﷺ : "يـؤم القـوم أقرؤهم لكتاب ا فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنّة ...". مسلم.

ويحترمون من يكرم صاحبه وجاره. عن عبد ا بن عمر رضي ا عنهما، قال رسول ا ﷺ : "خيـر الأصحاب عند ا تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند ا تعـالى خيـرهم لجـاره". أخرجـه الترمـذي وقال حديث حسن.

ومقابل تلك الحقوق التي تعطيها الجماعة للفرد، واجبات عليه تجاهها، بدءاً من أفراد أسرته وعائلته ويمتد أثرها إلى إخوانه المسلمين والأمة بأسرها. يقول تعالى: "وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا". النساء (٣٦).

وهكذا يعمل الترابط الاجتماعي على محو نزوة الأنانية، بروح الإخاء والتعاون الإيجابي فـي مجـالات الخير. قال تعالى: " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ". المائدة (٢).

وتعمل رابطة العقيدة الإسلامية على تنمية الروح الجماعية في قوله تعـالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ". الحجرات (١٠).

فكل فرد مهتم بنفسه لكن يشعر بشعور إخوته من المسلمين ولو اختلفت لغتهم أو قوميتهم، فسلمان الفارسي أرفع منزلة من أبي لهب عم رسول ا ﷺ وذلك بما آمن وقدم للإسلام وللمسلمين فيقول ﷺ : "سلمان منا أهـل البيت".[1] أي أن الفرد بما يعمل للجماعة، مقدر وترفعه الجماعة بقدر ما قدم من نفسه، بعكس ما نجد في النظـام الاشتراكي الذي يسخر الفرد لخدمة الجماعة ويقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد.

أما النظام الرأسمالي فيقدم الفرد على الجماعة، ويطلق له الحرية يفعل ما يشاء في سبيل التملّك ولو أضر بالآخرين، فيصبح إنساناً جشعاً لا هم له سوى ذاته وما جمع لها بعكس ما يتصف المسلم من الإيثار والتضـحية. قال تعالى في الأنصار: " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ". الحشر (٩).

وحرم على الفرد الإضرار بالآخرين. قال ﷺ : "لا ضرر ولا ضرار". سنن ابن ماجه.

---

[1] البداية والنهاية ج ٣-٤، ص٩٩.

وهكذا نرى أن الإسلام جمع بين الفردية والجماعية في صورة يشرق فيها الفرد بصـفته نـواة صـالحة لمجتمع صالح، وتشرق فيها الجماعة بصفة " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ". الحجرات (١٠).

رابعاً: الإسلام بين الفكرية والتجريبية:

لما كان الإنسان يمتاز بالعقل الذي يميز به بين الخير والشر، كان التفكير صفة لـه، والشـغل الشـاغل للنابهين من الناس. فأقر الإسلام هذا المعنى بقوله. " وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ". البلد (١٠). أي بما رزقناه مـن العقـل استطاع التمييز بين طريق الخير وطريق الشر.

ورفع الإسلام شأن العقل بدعوة الإنسان إلى التفكّر فيما يحيط به مـن مخلوقـات ا تعـالى: "إِن فِـي السماواتِ والأرضِ لآياتٍ للمُؤْمِنين* وفِي خَلْقِكُم وما يبث مِن دابةٍ آياتٌ لقَومٍ يوقِنُون* واخْتِلافِ الليل والنهارِ وما أَنْزلَ ا ُ مِن السماءِ من رزقٍ فَأحيا بِهِ الأرض بعد موتِها وتَصرِيفِ الرياحِ آياتٌ لقَومٍ يعقِلُون". الجاثية (٣-٥).

ودعا إلى حفظ العقل بتحريم كل ما يضيع العقل ويغيبه كالمسكرات والمخدرات. قال تعالى: " إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ". المائدة (٩٠). وقوله ﷺ : "كل مسكرٍ حرام".

وامتدح الإسلام أصحاب العقول النابهة الذين يحسنون التفكير والتدبر. قال تعالى: "إِن فِي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ واخْتِلاَفِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأُولِي الألْبابِ* الَذِين يذْكُرون ا َ قِياما وقُعودا وعلَى جنُوبِهِم ويتَفَكـرون فِي خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ربنَا ما خَلَقْتَ هذَا باطِلاً سبحانَك فَقِنَا عذَاب النارِ". آل عمران (١٩٠-١٩١).

ولام على الكفار إقفالهم باب التفكّر إعراضاً وعِنـاداً. قـال تعـالى: " وَكَأَيِّن مِّن آيَـةٍ فِـي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ". يوسـف (١٠٥). وقولـه: " وَإِذَا رَأَوْا آيَـةً يَسْتَسْخِرُونَ ". الصافات (١٤). وقوله: " وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ". يس (٤٦).

واستقصى القرآن الكريم الموانع التي تعطّل العقل وتحول دون التأمل والتفكير وهي كالآتي:

١. **وقوف الإنسان بحياته عند حدود حياة وعقيدة وفكر من سبقه من الآبـاء والأجـداد**. قـال تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَـا أَنـزَلَ اللهُ قَـالُوا بَـلْ نَتَّبِـعُ مَـا أَلْفَيْنَـا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ". البقرة (١٧٠).

الإقبال على الدنيا بما فيها من مباهج وتلبية الشهوات إلى حد تعطيل العقل والحواس كالبهائم، بل إن البهائم تنفر مما يضرها أما هم فلا يفعلون. قال تعالى: "أَرَأَيتَ من اتخذَ إلَهه هواه أَفأَنْتَ تَكُون علَيهِ وكِيلاً* أَم تَحسب أَن أَكْثَرهم يسمعون أَو يعقِلُون إِن هم إِلا كالأنْعامِ بلْ هم أَضل سبِيلاً". الفرقان (٤٣-٤٤).

رؤية الأمور بمنظار المصالح المادية كالجاه والثراء. قال تعالى: " ولَما جاءهم الْحق قَالُوا هذَا سِحر وإِنا بِهِ كَافِرون* وقَالُوا لَولاَ نُزلَ هذَا الْقُرآن علَى رجلٍ من الْقَريتَين عظِيمٍ". الزخرف (٣٠-٣١). وقوله تعالى: " قَالُوا أَنُؤْمِن لَك واتبعك الأَرذَلُون ". الشعراء (١١١).

٢. **ضعف البصيرة عن فهم حقائق الكون والإيمان**. قال تعالى: " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ". محمد (٢٤).

٣. **خُلُق الكبرياء يمنع صاحبه من الإقرار بالحق الذي عرفه**. قال تعالى: " وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ". لقمان. (٧). وقوله تعالى: " يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ". الجاثية (٨).

خُلُق العناد يدفع إلى الإصرار على الفعل. قال تعالى في وصف أصحاب الشمال يوم الحشر: "إِنهم كَانُوا قَبلَ ذَلِك متْرفِين* وكَانُوا يصِرون علَى الْحِنْثِ[1] الْعظِيمِ ". الواقعة (٤٥-٤٦).

٤. **الانحراف عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها**. قال تعالى على لسان قوم لوط: " أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ[2] مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ". النمل (٥٦). وقوله تعالى: " وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ". إبراهيم (٣). وقوله تعالى: " أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ". الزخرف (٤٠)

٥. **المعاصي والإسراف في الذنوب**. حيث تقيم المعاصي جداراً بين الإنسان وربه، يعوقه عن التفكير السليم فتقل استجابته للمؤثرات الإيمانية والحسية. قال تعالى: " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ". الأعراف (١٤٦). وقوله تعالى: " كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ". المطففين (١٤). وقوله تعالى: " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ". الصف (٥).

ولما استجاب العرب لداعي الإيمان والإسلام، وحررت عقولهم من قيود الجهل وانزاحت عن بصيرتهم غشاوة الكفر، وتفتحت مداركهم، وعملت عقولهم، نظروا وأرجعوا كل شيء إلى خالقه، ساقهم التفكّر في مخلوقات الله إلى البحث والدراسة والتجريب حتى ازدهر العلم وكثر العلماء، وأُلّفت الكتب، وأُسست دور العلم، وطرق المسلمون أبواب العلوم المختلفة من علوم الأمم السابقة كاليونان والرومان، وأضافوا إليها كماً هائلاً من العلوم، فعملوا على ترقية ما أخذوه وطبقوه، ثم حسنوه وعملوا على نمائه، ثم أنجزوا المخترعات وفاقوا علماء أوروبا،

(1) الحنث العظيم: الشرك، المعجم الوسيط مادة حنث.
(2) قوم لوط: أتباع النبي لوط عليه السلام.

الذين أخذوا العلم عن العرب والمسلمين ودرسوا في جامعاتهم، كما يشهد علماء الغرب بذلك. قال العالِم الفرنسـي الكبير سيديو: إن نتاج أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنّهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء"[1].

أما العالِم ويلز، فقال عن حضارة العرب والمسلمين: "كانت طريقة العربي[2] أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الإبهام"[3].

وقال العالِم فلوريان: كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقيـة العِلـم والفن ولا نبالغ إذا قلنا أن أوروبا مدينة لهم بخدماتهم العلمية تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والأكبـر فـي نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد.[4]

هذه هي آثار الإيمان با ومكتسبات الإسلام. إذ أبدع المسلمون وكان فضل ا عليهم عظيماً بأن أنزل عليهم القرآن العظيم الذي بدأ بكلمة اقرأ، وتلاه الدعوة إلى التفكّر في خلقهم وما فيه من إعجاز رباني ثم أبان لهم تعالى دور القلم في كشف مجاهل الحياة، فكان للقراءة والكتابة دور في انفتاح الإنسان على علوم كثيرة لم يكن يعلمها. قال تعالى: " اقْرَأْ بِاسمِ ربك الَذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإِنْسان مِن علَقٍ* اقْرَأْ وربك الأَكْرم* الَذِي علم بِالْقَلَمِ* علم الإِنْسان ما لَم يعلَم". العلق (١-٥).

لقد هدوا إلى علوم كانت خافية عليهم طوال عصور اتسمت بالجهل والجاهلية. وعليه فإن الفكر، أسـاس العلم والتجريب، ضرورة يمليه الشوق إلى المعرفة، والمخترعات وليدة العلم وتنافس العلماء ودليل إبـداع أنجـز لخدمة الإنسان.

ولم يذكر في تاريخ علوم العرب والمسلمين اختراع أُنجز لضرر الإنسان أو تدميره أو هلاكه، كما نـرى اليوم من اختراعات سلاح الدمار الشامل لدى الدول المتقدمة والأكثر تحضراً!!

---

[1] تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص٢٥.
[2] العلماء المسلمون ليسوا كلّهم عرباً، فهذا العلم من أثر الإيمان على من أسلم.
[3] تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص٢٥.
[4] تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص٢٥.

- **اقتصاد المسلمين:**

سن الإسلام مجموعة من الأحكام لتنظيم عمل الفرد والجماعة في جميع النواحي المتّصلة بكسب المال وتنميته وإنفاقه بهدف ضمان الحياة الكريمة للأفراد والعزة والمَنَعة للأمة.

وقد استمدت الأحكام من القرآن الكريم وسنة النبي محمد ﷺ ، وقام العلماء على ضوئها ببيان القواعد التي تنظم اقتصاد الدولة ووضع الحلول المناسبة للمشكلات المتجددة على مر العصور.

فبينّت هذه القواعد شروط الكسب المباح والمحرم والأعمال المباحة ومصادر المال عند المسلمين هي:

١. العمل: بالتجارة والصناعة والزراعة وأمثالها.
٢. العبادة المالية: كالزكاة والحج والكفارات والصدقات.
٣. نظام النفقة: كإنفاق رب الأسرة على عائلته.
٤. أموال الدولة العائدة من الفيء في الحروب والجزية والخراج.

وشرع الإسلام الأرباح التي تعود بالمشاركة بين صاحب المال والعامل على تنميته كالمساقاة والمزارعة.

وحرم الإسلام كل مال ينمى بأسلوب يضر بالنّاس فضلاً عن مصدره وذلك مثل:

١. الربا: لقوله تعالى: " وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ". البقرة (٢٧٥).

٢. احتكار البضاعة عند الحاجة إليها: لقوله ﷺ : "من احتكر فهو خاطئ". مسلم.

٣. الغش بتزيين البضاعة على غير وجه الحقيقة. فعن أبي هريرة رضي ا عنه أن رسول ا ﷺ مر على صبرة طعام، فأدخل يده فيها. فنالت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال: أصابته السماء يا رسول ا . قال: "أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشّ فليس منّي". مسلم. أي (ليس على سيرتي الكاملة وهديي ومن المحافظين على شريعتي).[1]

٤. التطفيف عند الكيل في الميزان: لقوله تعالى: " ويلٌ للمطَففِين* الذِين إذَا اكْتَالُوا علَى الناسِ يستَوفُون* وإذَا كالُوهم أَو وزنُوهم يخْسِرون". المطففين (١-٣).

٥. أكل مال اليتيم: لقوله تعالى: " وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ". الإسراء (٣٤). وقوله تعالى: " وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا [2] كَبِيرًا ". النساء (٢).

٦. الغصب والسرقة: لقوله تعالى: " وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ...". البقرة (١٨٨).

٧. الرشوة: لقوله تعالى: " وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ". البقرة (١٨٨). أي تدفعوا الأموال رشوة إلى الحكّام ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل".[3]

---

[1] مختصر صحيح مسلم، ص٢٥١.
[2] الحوب: الإثم، معجم الوسيط مادة حَوَبَ.
[3] صفوة التفاسير، ج١، ص١١٢.

٨. الخداع: عن ابن عمر رضي ا عنهما: أن رسول ا ﷺ نهى عن النجش.[1] مسلم.

٩. الاتّجار بالمحرمات: لقول ﷺ : "إن ا حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام".[٢]

١٠. مد اليد للسؤال: ويستثنى المضطر كالمديون والمصاب في ماله كمن غرقت تجارته أو سـرقت أمواله واحتاج. أما من أخذ من غير ضرورة فهو إثم عليه لقول رسول ا ﷺ في حديثه عن المسألة مـن غيـر حاجة ملحة: "سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً". مسلم. ويأخذ المضطر على قدر حاجته ولا يعود إليها، وعلى هذا فنظام اقتصاد المسلمين نظام أخلاقي امتاز بهذا عن سواه من الأنظمة السائدة الآن، فبينما دعا الإسلام للقناعـة ومنـع الجشع تعطي الرأسمالية مطلق الحرية للفرد للحصول على المال بالطريق الذي تناسبه ولا حرج عليه في أي نوع من أنواع جني الأموال مهما كان ظلماً للآخرين وتعدياً على حقوقهم.

هذا وقد أوصى الإسلام المسلمين ببعضهم وحضهم على الإيثار وعمل الخير. قال تعـالى فـي وصـف المؤمنين الأوائل: " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ "[٣]. الحشر (٩). وقولـه تعـالى: " وَآتَـى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَـى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَاكِينَ ...". البقرة (١٧٧). وقد وعد ا المسلم المنفق في سـبيل ا بالثواب الجزيل والجزاء العظيم. قال تعالى: " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِـي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّـةٍ أَنبَتَـتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَّشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ". البقرة (٢٦١).

والإسلام يحارب الطبقية ويرفض أن يكون المال في يد طبقة لا تنفقه، وإنّما حض على الزكـاة والنفقـة والإنفاق في سبيل ا . قال تعالى: " مَـا أَفَـاءَ اللهُ عَلَـى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّـهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَـى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ...". الحشر (٧).

فمثل هذا يسود في النظام الرأسمالي إذ تعلو منزلة الأثرياء بين الناس وعند حكومتهم فيسهم رجالاته فـي اختيار الحاكم الذي مصلحة أموالهم عنده، ويكون لذلك الأثر الواضح في ظلم المظلومين والمستضعفين، فيما يعمل الاقتصاد الاشتراكي على تقييد الفرد ويلغي الملكية الفردية، ويجعل جميع قوى الإنتاج ملكاً للدولة لا حـق للفـرد فيها إلا بقدر، وهذا النظام يهضم حقوق الفرد ويعمل على إطفاء مواهبه وإبداعاته ويدمر حوافز الجد والاجتهـاد عنده.

وهكذا نرى أن اقتصاد المسلمين يتحقق فيه الاعتدال، ففيما يحترم الملكية الفردية ويشجع الفرد على العمل والإنتاج بشرط أن لا تنمى أمواله بالحرام ويظلم الغير مهما كانت وجوهه، وبالإضافة إلى ذلـك تكـون الدولـة المسلمة مسؤولة عن تأمين الحياة الكريمة للأفراد العاجزين عن الكسب، من بيت مال المسلمين، وإن كـانوا مـن غير المسلمين.

---

(1) وهو أن يزيد البائع في ثمن السلعة ليخدع غيره بأنها ثمينة ويغريه ليزيد ويشتريها.
(2) فقه السنة مجلد ٣ / ١٣٦.
(3) الخَصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال – المعجم الوسيط، مادة خصّ.

ويقبل المسلمون المالكون لنصاب الزكاة على دفع زكاة أموالهم طواعية بل ويوقفون بعضاً من ممتلكـاتهم لحساب أعمال الخير والبر ومساعدة المحتاجين، وعندما التزم المسلمون بشرع ا وطبقوا أحكام دينهم، فاض مال الزكاة عن حاجة المحتاجين، وتحققت العدالة الاجتماعية واستخدمت الأموال لنشر الإسلام في أنحاء العـالم. فقـد روي أنه في عهد الإمام العادل عمر بن عبد العزيز أنهم لم يجدوا في إفريقية من يستحق الزكاة. قال يحيـى بـن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت من نعطيها له فلم نجد فقيراً ولم نجد من يأخذها منّا، فقد أغنى عمر بن عبدالعزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم.[1]

- **نظام العقوبات عند المسلمين:**

العقوبة هي: الجزاء المقرر على المذنب عند عصيانه أمر الشارع الحكيم وذلـك لمصـلحته ومصـلحة الجماعة، فإذا عوقب مرتكب الذنب يصلح حاله فلا يعود للذنب مرة أخرى ويحمى المجتمع من المفاسد، ويصـان نظامه، هذا بالإضافة إلى أن العقوبة المقررة تكون تدبيراً وقائياً يمنع الإنسان من التفكير في الجريمة.

وتقوم الدولة الإسلامية بتنفيذ العقوبات التي بينها كتاب ا وسنّة رسول ا محمـد ﷺ ، والتـي تتسـم بالعدل. فكل عقوبة جريمة تكون على قدر ارتكاب هذه الجريمة ومناسبة لها، فالقاتل يقتل، والسارق تقطـع يـده والزاني يجلد ... الخ.

والناس سواسية أمام القضاء الإسلامي، فيقام القصاص على المذنب بغض النظر عن عائلته أو طبقتـه أو منصبه، ففيما روي أن أسامة بن زيد حدث رسول ا ﷺ في شأن امرأة مخزومية سرقت - رأى إن شفع لها - حتى لا يقام عليها الحد فتأثر رسول ا ﷺ وقال: "أتشفع في حد من حدود ا ، إنّما ضل من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم ا لو أن فاطمة بنت محمـد سـرقت لقطعت يدها". البخاري.

وبهذا يصان العدل، ويتحقق هدف الشرع من حفظ الحقوق وإشاعة الأمن واحترام النظام فـي المجتمـع، ويطمئن الناس، يقول تعالى: " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ". البقرة (١٧٩).

ويشترط الإسلام التيقّن من وقوع المعصية أو الذنب، التحقق من اسـتحقاق المـذنب العقوبـة، ويسـتمع القاضي للشهود، وإن ادعي على مسلم بعدوانه أو أذى وقع منه سئل المتهم، فإن أنكر طُلِب من المـدعي إقامـة البينة والدليل على صدق ما ادعى، فإن لم يستطع طلب القاضي من المتهم حلف اليمين، وكان إيمان الناس صادقاً ويستبعد أن يحلفوا اليمين وهم على الكذب لخشيتهم من عقاب ا تعالى. عن ابن عباس رضي ا عنهمـا قـال رسول ا ﷺ : "لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دِماء رجالٍ وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليـه". مسلم.

[1] كتاب - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص١٥٦.

ولا توقع العقوبة على المضطر "كالسارق في حالة الجوع الشديد أو عدم وجود ما يقضي حاجته. قال عمر رضي الله عنه: لا تقطع اليد في عذق[٢] ولا في عام سنة[٣]". وروي أنه لم يقطع أيدي السراق في عام الرمادة[٤].

ويعفى عن المسيء إذا عفا عنه صاحب الحق (المتضرر) وقد وعد رسول الله ﷺ العافي بالأجر الكبير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً". الإمام أحمد.

قال تعالى: "... فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ". المائدة (٤٥). ولا تنفّذ العقوبة إذا كان للمذنب شبهة كخالل العقل أو الإكراه، ودعا الشرع الإسلامي إلى توقّي الوقوع في الخطأ والاشتباه لئلاّ يقع الظلم على المتهم فيحاسب القاضي عليه. فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : "ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلّوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة". الترمذي.

فهذا مما يدلّل أن رؤية الإسلام للعقوبة هي من زاوية الردع والقضاء على الفساد لا من قبيل التسلّط والانتقام كما نسمع في العقوبات السياسية.

وإذا كان المتهم مريضاً يؤخّر الحد حتى يبرأ ويتماثل للشفاء وإن كان ضعيفاً عوقب بحسب حالته.

يروي سعيد بن سعد بن عبادة رضي الله عنه: أن رويجلاً ضعيفاً خَبَث بِأمةٍ من إماء الحي فذكر سعد ذلك لرسول الله ﷺ فقال: "اضربوه حده. قالوا: يا رسول الله إنّه أضعف مما تحسب. لو ضربناه مائة قتلناه". فقال: "خذوا له عِثكالاً[١] فيه مائة شمراخ ثم اضربوه به ضربة واحدة. قال: ففعلوا". الإمام أحمد. فهل نجد تسامحاً كتسامح الإسلام؟!

وإن ما يميز العقوبات في الإسلام أنه مرتبط بالعقيدة، فالمسلمون يثقون بعدل ربهم وصواب حكمه، فيسعون لإرضائه وغفرانه ويسارعون الخطى إلى تكفير ذنوبهم بطلبهم إقامة الحد عليهم حتى لو كانت العقوبة هي القتل. فعن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: أتى رجل رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال: يا رسول الله إني زنيت فأعرض عنه، حتى ردده أربع مرات فلما شهد على نفسه أربع مرات ودعاه النبي ﷺ وقال: "اذهبوا به فارجموه". البخاري.

وروى أن امرأة من غامد جاءت رسول الله ﷺ مقرة بالزنا وهي حامل وقالت: إنّها حبلى من الزنى. فقال لها: ارجعي حتى تضعي ما في بطنك، فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، فأتى النبي ﷺ قد وضعت الغامدية. فقال الرسول ﷺ : إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه، فقام رجل من الأنصار فقال: "إلي رضاعه يا نبي الله. فرجمها". مسلم.

---

[٢] العذق: كلّ غصنٍ له شعب مثل قنو النخلة أو عنقود العنب – المعجم الوسيط، مادة عذق.
[٣] عام سنة: السنة الجدب والقحط، المعجم الوسيط مادة: سَنَهَ.
[٤] كتاب - من سماحة الإسلام، ص١٣٦.
[١] العِثكال: العصا التي تحمل ثمر النخل.

وفيما حدث شاهد على عدله وسماحته ﷺ ، فرفق بالجنين وسعى لإتمام حياته ولم تُحد أمه حتى ضمن له بحضن يرعاه، أي لم يؤخذ هذا الرضيع بذنب أمه وكذا في سائر الأحوال فلا يؤاخذ أحد بجريرة من ظلم ولو كان أقرب المقربين إليه وا سبحانه وتعالى يقول: " وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ". الأنعام (١٦٤).

هذا هو القضاء في الإسلام وهذه هي العقوبات عند المسلمين، ففي أي من بقاع الأرض نجد من يقر على نفسه أو من يلح بإقامة العقوبة عليه؟! ومتى كان القضاة يميلون إلى العفو عن المسيء عند قلة الأدلة الثبوتية عند غير المسلمين؟!!! ومتى كان القضاء عادلاً نزيهاً مثلما ما كان عليه عند المسلمين؟؟!!

إن نظام السماء لا يخطئ أبداً، فا هو الحق والعدل الكاملين التامين. ا جلّ شأنه الذي يقـ ول: " إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ...". النحل (٩٠). ويقول: "... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ". النساء (٥٨). ويقول سبحانه وتعالى: "يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين ...". النساء (١٣٥). وأيضاً: " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ". المائدة (٨).

الاعتدال في عبادة الناس:

العبادة هي أول غايات وجود الإنسان قال تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ". الذاريات (٥٦)، وخَلْق الإنسان لغاية يجعل للإنسان قيمة ومعنى، وإلا كانت حياته ضرباً من اللهو والعبث ومضيعةً للوقت، وهي حياة سخيفة يتسرب إليها الملل ويتخللها الفراغ وتسودها شريعة الغاب ويربكها تصادم المصالح وتتقوض فيها الصلات الاجتماعية ويتضاءل عمل الخير، فهل حياة مثل هذه يهفو إليها آدمي؟؟!!

أما أن تكون العبادة هي غاية وجود الإنسان، فهذا يعني التزام الإنسان بخط حياة واضح فيعمل فيها على تحقيق منهج رسمه ا له، هو قواعد عامة يضبط سلوكه على أساسها، وهو الشرع الذي شرعه ا له، يتعلم من خلاله ما يصلح له... ويتخير مما يصلح له ما شاء، ويتعلم ما لا يصلح له .. فيبتعد عنه. ويتعرف إلى ما حضه ا على عمله وزينه له، وحسنه وأجزل جائزة العمل به.

إذاً لعبادة المسلم مدى ومتسع يتضمن كل طاعة أطاعها الإنسان من الائتمار بأمره تعالى واجتناب نواهيه، كذلك تشمل كل خيرٍ عمله المسلم خالصاً أو كلّ شر اجتنبه خالصاً .

وتحمل العبادة معنى خضوع العابد له، لما يكون في يقينه من الشعور بعظمة ا وحده وهيمنته على عباده وخلقه، وهذا ما يترجمه المسلم في صلاته بالركوع والسجود، ولا يسجد المسلم بحال من الأحوال لأحد، كما كان يفعل الناس لملوكهم في زمان النبوة، كذا تحمل العبادة معنى التذلل وحده في الدعاء والاستغفار وطلب الهدى والتوفيق.

أما جملة المناسك التي أمر المسلم بها، كالصلاة والصيام والزكاة والحج والتي تختص باسم العبادات، فهي تكليف إلهي أوحاه ا لنبيه محمد ﷺ ، في الكتاب المنزل عليه القرآن الكريم، وقد بين رسول ا ﷺ هذه العبادات: أعمالها، وأركانها وشروط صحتها، كما أوحِي إليه، لا تبعاً لأهوائه ورغباته، فهو كما وصفه تعالى

وحي يوحى. قال تعالى: "وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى". النجم (٣ - ٤). وتربط العبادات الإنسان بربه وتسهل عليه الأخذ بمنهاج السماء والعمل به، مثلما تعينه على اجتياز مصاعب الدنيا. قال تعالى: " وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ...". البقرة (٤٥). وقول النبي ﷺ : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنّه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء[1]". البخاري ومسلم.

هذا إلى جانب أن العبادة تزكّي نفس العابد وتطهرها من الآثام. قال تعالى: " قَدْ أَفْلَحَ من زكاها* وقَدْ خَابَ من دساها". الشمس (٩-١٠).

وعلى المسلم أن يقوم بالعبادات كما جاءت في السنة الشريفة بغير نقص أو زيادة لقوله ﷺ : "صلوا كما رأيتموني أصلي". البخاري.

والعبادة تربط العبد بربه تأخذ بيده بالسير على نهجه، وتسهل عليه الثبات على صراط الإسلام المستقيم، فلا ينحرف عنه، وتضعف أثر الشياطين العاملة أبداً من أجل أن ينحرف عن هذا الخط ويجعله يخالف أوامر المعبود ويجنح إلى فعل ما أنكره ونهى عنه.

والبعد عن العبادة أو التقصير فيها أو إهمالها والانغماس في شهوات الحياة يطفئ جذوة أشواق الروح، فيقسو القلب شيئاً فشيئاً حتى يصبح درب الهداية عليه شاقاً فيضل ثم ينحدر في طريق الضلال إلى القعر حيث لا يسهل الصعود ولا تحسن العاقبة، قال تعالى: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ". الحديد (١٦).

والمؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا تفاعل مع هذه الإيمانيات وما ينبثق عنها من حق وخير ونور ويصبح هو والإيمان أمراً واحداً، لا ينفصلان مهما حصل، لانسجام فطرته وائتلاف روحه مع الإيمان، كالأرض تكون قبل أن تسقط عليها قطرات المطر من السماء خاشعة ذليلة، فإذا سقطت عليها انتشت وأخذت في التفاعل مع الماء، وخرجت عن السكينة، وأخذت في الحركة النافعة وإنبات البذور وعمل النافع بإنشاء الحياة مع إرادة ا .
قال تعالى: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ". فصلت (٣٩).

وبذا تخرج العبادة عن الماديات الصرفة، فليست العبادة تلك المناسك والشعائر التي يقوم بها المصلي والحاج، فحسب، بل تجمع إليه تفاعل النفس وتجاوب القلب في بوتقة النفس البشرية فتزدان بالمشاعر المتألقة، التي طالعها السعد والعزة التي لا تكون لغير المؤمن. قال تعالى: " وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ". المنافقون (٨). وبذا فإن انقطاع المسلم عن عبادة ربه، حرمان له مما يجد المؤمن الحق في العبادة الصحيحة إذا داوم عليها.

娑 آثار العبادة على العابد:

أولاً: تؤثر العبادة في أخلاق المسلم إذا أديت على وجهها الصحيح الأكمل وإذا كانت مستوفية أحكامها وآدابها وقائمة على أصل إقامتها ألا وهو الخضوع وحده. فالعبادة الحقّة تؤثر في العابد كما يلي:

---

[1] وجاء: وقاية.

١. تكسبه قوة، فهو قوي لا تهزه الريح، إذ لديه القدرة على التحمل والصبر على ما يلاقي من مصاعب، وما يلم به من مصائب وما ينزل عليه من ابتلاءات لأنه يعلم أن ذلك من ا ، لا من أحد غيره، وأنه بهذا الصبر يلاقي الفرج. قال تعالى: "... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ". البقرة (١٥٥). والعِوض الجزاء الأوفى لمن صبر إرضاء له. قال تعالى: " وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ". فصلت (٣٥).

٢. يكون شاكراً لأنعم ا ، حامداً له على ما خصه تعالى به من رزق وولد وصحة وصفاء عيش، ودرجة نالها ومنزلة نزلها، وحب الآخرين له، وما عم به أهله وجماعته وسائر المسلمين من أمن وزوال غُمة عنهم وانفراج كرب واندحار عدو ونصر مؤزر، وارتفاع كلمة فهو يعلم حق العلم أن ا تعالى وحده هو مصدر هذا الخير العميم.

يكون جواداً يعطي ويبر ويؤتي الآخرين مما أنعم ا عليه من مال حلال، ويسهم في أعماله البر رغم حبه للمال. لأنه يعلم أن ا تعالى هو من أنعم عليه وهو مسؤول عما أعطاه ا . وأنه بعطائه ينال حب ا ورضاه ويحظى بحمايته وبركته وتوفيقه. وصدق أحسن القائلين: "إِن الإِنْسان خُلِقَ هلُوعا (١)* إِذَا مسه الشر جزوعا* وإِذَا مسه الْخَير منُوعا* إِلا الْمصلين* الَّذِين هم علَى صلاَتِهِم دائِمون* والَّذِين فِي أَموالِهِم حق معلُوم* لِلسائِلِ والْمحرومِ". المعارج (١٩-٢٨). قال أبو عبيدة رضي ا عنه في شرح الآية: "الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر".(٢)

ثانياً: القرب من ا تعالى: يستشعر العابد القرب من ا تعالى، القوي المتين، فلا يحمل للدنيا هماً، ويكون أكثر ما يكون ثباتاً على الحق. وأقل ما يكون انحيازاً إلى الباطل، إذ جعل تعالى شهادة وصية من يحضره الموت بعد الصلاة. قال تعالى: "يا أيها الذين ءامنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان با إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة ا إنّا إذاً لمن الآثمين". المائدة (١٠٦).

ثالثاً: البعد عن الفحشاء والمنكرات: "وهو ما ينكره الشرع". فإذا عرض للمرء أمر ينكره الشرع وتلاقت عليه ضغوط الشهوة والحاجة، ذكر أنه عابد ولا يصح أن يبدر منه أي سلوك فيه مخالفة لمن عبده. قال تعالى: "وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ولذكر ا أكبر وا يعلم ما تصنعون". العنكبوت (٤٥).

رابعاً: تعين العبادة على الصبر في المصائب والملمات وتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية. قال تعالى: " وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ". البقرة (٤٥).

---

(1) الهلوع: كثير الجزع والضجر، صفوة التفاسير، جـ٣/ ٤١٩.

(2) صفوة التفاسير، جـ٣، ٤١٩، عن القرطبي.

وهذا في سائر العبادة. قال القرطبي: "إنّما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادة تنويهاً بذكرها، وكان عليه السلام إذا حزبه أمر - أغمه - فزع إلى الصلاة وكان يقول: "أرحنا بها يا بلال".(١)

خامساً: تساعد العبادة العابد على الكف عن اتباع طريق الشهوات. قال تعالى في وصف الأقوام الذين جاءوا بعد المتقين من الأنبياء وأتباعهم، تركوا الصلاة وسلكوا طريق الشهوات وبين أنهم سوف يلقون كل شر وخسار ودمار.(٢):" فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ".(٣) مريم (٥٩).

سادساً: تربي العبادة على حب الخير للآخرين ونبذ الأنانية وتعود على الإحسان. كما في:

أ. **الصيام:** عن ابن عباس رضي ا عنهما قال: كان رسول ا ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ... إلى قوله فلَرسول ا ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة". متفق عليه.

ب. **الحــج:** عن جابر رضي ا عنه عن النبي ﷺ قال: "الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة". قيل: وما بره قال: إطعام الطعام وإفشاء السلام". رواه أحمد.

ج. الزكاة: قال ﷺ : "ثلاث من فعلهن فقد طَعِم طَعم الإيمان: من عبد ا وحده، وعلِم أن لا إله إلا ا ، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه رافدةً عليه كلّ عامٍ ولم يعطِ الهرمة ولا الدرنَة ولا المريضة ولا الشَرطَ اللئيمة ولكن من وسط أموالكم ...".(٤) أبو داود. أي يؤدي الزكاة ونفسه تعينه على الأداء بسماحتها وطيبها، لا أنها تنازعه وتحدثه بالمنع.

سابعاً: تعمل على تطهير العبد من الذنوب والآثام. فعن أبي هريرة رضي ا عنه. قال: قال رسول ا ﷺ : "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر". مسلم.

ثامناً: العبادة تربي العبد وتهذب خلقه: فعن أبي هريرة رضي ا عنه أن رسول ا ﷺ قال: "الصيام جنّة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم..". البخاري ومسلم.

هذا فضل العبادة على العابد، يحرم منها كل من ترك العبادة واتبع شهواته يجيب نداءاتها فهو الخاسر لا محالة وواقع بشر اختياره فقد اشتط في الاختيار وسيعاقب حتماً إن لم يرجع عن غيه.

---

(1) صفوة التفاسير، جـ١، ٤٨.

(2) صفوة التفاسير، جـ٢، ٢٠٢.

(3)غيا: شراً وضلالاً قال أصل اللغة: كل شر عند العرب فهو غي وكل خير رشاد، صفوة التفاسير، جـ٢ ، ٢٠٠.

(4) الدرنة: الجرباء. والشَرط: الرذيلة من المال / المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، ص١٩٢.

أما الاندفاع في الاتجاه المعاكس فهو الميل مع الروح والتفرغ التام للعبادة والانسلاخ من الدنيا وشهوات النفس ورغائبها المختلفة حباً في ا وتنازلاً عن جملة حقه في الحياة، وفي هذا غلو ومجاوزة الحد في البعد عن الحق.

ومثله كمثل أنصار السيد المسيح عليه السلام في حبهم له، إذ وجدوا فيه رائداً يحققون فيه طاعتهم وأشواقهم الروحية، فاتخذوه إلهاً أو ابن آلهه، أو أحد ثلاثة ... فضلّوا عن الصراط المستقيم ... قال تعالى: "... وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ...". الحديد (٢٧).

فوقعوا في المحظور .. فأصل العقيدة عبادة ا وحده قال تعالى: " وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ". المائدة (٧٢).

فلما جاء الإسلام في زمن سيطرت فيه المادة وتلبية الشهوات على الروح رغم وجود الكعبة وآثار دعوة إبراهيم عليه السلام، وكان الربا والرق منتشراً ..... فآمن به خلق كثير ووجدوا في الدين الجديد اتفاقاً مع فطرتهم وشعورهم بأن الناس سواسية ويتفاضلون بالأعمال الصالحة، فأحبوا هذا الدين وأطاعوا ا في كل ما أمرهم، وأحبوا الرسول حباً كبيراً وفدوه بأنفسهم وأموالهم، لأنّه رسول ا ، حتى أن البعض منهم فرض على نفسه العبادة أكثر مما طلب منه، ونأى بنفسه عن الدنيا، حباً في ا . وانكب على العبادة مواصلاً لها رغم ما يجد من عناء ومشقة لا يجدها من عبد ا باعتدال مثل سلمان الفارسي رضي ا عنه، الذي آخى نبي ا ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، إذ زار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مبتذلة(١) فقال لها ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء ووضع له سلمان طعاماً فقال: "كل فإني صائم". قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال (سلمان) فأكل: فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال (سلمان): نم وقام، ثم ذهب (أبو الدرداء) يقوم فقال (سلمان): نم فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا. فقال له سلمان: "إن لربك عليك حقاً ولنفسك عيك حقاً ولأهلك عليك حقاً، فاعط كل ذي حق حقه". فأتى (سلمان) النبي ﷺ فذكر له فقال النبي ﷺ : "صدق سلمان". البخاري. أي أقر الحكمة التي نطق بها سلمان فإنّما جاء في قول سلمان رضي ا عنه: "إن على الإنسان جملة حقوق وجب أن يوازن بينها".

ومن الفطرة أن يكاف المرء بحسب قدرته لا زيادة. قال تعالى: " لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ...". البقرة (٢٨٦).

وقد كان رسول ا ﷺ قدوة لأصحابه ولجماعة المسلمين فكان يعبد ا تعالى يؤدي الفرائض، ويقوم بسائر الطاعات ويزداد من النوافل دون أن يؤثر ذلك على سائر أحواله، فهو يقوم الليل فإذا نعس نام ويصوم ما شاء فلا يواصل الأيام صائماً، ويتزوج النساء ولا يمتنع من تلبية غريزة فطرها ا بطريق مشروع، وكان

---

(1) مبتذلة: تركت الزينة والتجمل ولبست الخلق من الثياب.

صحابته رضوان ا عليهم يتابعون أحواله ويقتدون به، غير أن البعض منهم رد ما كان يرى من رسول ا إلى أنه مغفور الذنوب لا يحتاج إلى عمل يدخله الجنة ... فماذا كان موقفه ﷺ من رؤياهم تلك؟

سمع رسول ا ﷺ عن رجال سألوا عن عبادته، فلما ُأخبِروا عنها كأنّهم تقالّوها فقالوا: "أين نحن من النبي ﷺ، فقد غفر ا ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول ا ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ وا إني لأخشاكم وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني". صحيح البخاري.

هكذا فإن رسول ا ﷺ ينبه إلى حقيقة في الإسلام هي: "إن إجهاد أنفسهم وحرمانها مما تطيب به ليس من التقوى". وفي حين أنه يشجع على العبادة والنوافل إلا أنه دعاهم للاعتدال فيها قال ﷺ : "سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة(١) ... القصد القصد تبلغوا". البخاري.

.. وذُكر أن امرأة حملَتْ نفسها ما لا تطيق فمدت حبلاً بين ساريتين في المسجد، فقال رسول ا ﷺ : ما هذا؟ قالوا: جعِلَ لزينب، تصلّي فإذا كسلت أو افترت أمسكت به. فقال: حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه وإذا كسل أو فتر قعد". رواه البخاري.

والحكمة فيما رمى إليه رسول ا ﷺ هي:

١. يخشى أن ينقطع العابد المتشدد عن عبادته مللاً.
٢. قد تظهر على العابد المتشدد آثار عدم نشاط تجعله غير واع ما يقول أثناء العبادة. فعن عائشة رضي ا عنها قال رسول ا ﷺ : "إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه". متفق عليه.
٣. قد يؤدي تجاوز الاعتدال في أداء النوافل إلى ضعف قدرة العابد على أداء الفريضة وهي الأصل، كمن سهر طوال الليل يتهجد وهو يغالب النعاس فلما قرب الفجر ضعفت مقاومته فنام ففاته أداء فريضة الفجر، وفي الأثر قول رسول ا ﷺ : "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنْبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى". فمثل الناشط في عبادته فوق الاعتدال كمثل الناشط على ركوبته يحثها لتسرع قاصداً الوصول إلى هدفه سريعاً، مما أتعب الدابة فضعفت عن مواصلة رحلتها وقعدت براكبها عن مواصلة المسير.
٤. قد يسبب كراهية العبادة كما جاء في الأثر قول رسول ا ﷺ: "لا تبغّضوا إلى أنفسكم عبادة ا ".
٥. التقصير في واجبات الدنيا كواجبات الإنسان تجاه أهله أو تجاه عمله أو تجاه صحته (كمن واصل الصيام أو حرم النوم).

---

(1) الدلجة: السير من أول الليل، المعجم الوسيط، مادة دلج.

هذا بالنسبة للنوافل، وأما العبادة المفروضة، فليس فيها ما يشق على الناس، فإذا أسرف المرء في الوضوء لظن منه أنه لا يحسن الوضوء أو لا يعمل بالسنة، فهذا من الوسوسة احتسبه رسول ا ﷺ إسرافاً في الماء. فعن عبد ا بن عمر رضي ا عنه قال: مر رسول ا ﷺ عن سعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال أو في الوضوء إسراف؟ قال: نعم ولو كنت على نهر جارٍ". رواه أحمد.

ولم يفرض على المسلمين ما يمكن أن يكون عليهم شاقّاً يوماً ما. فتنظيف الأسنان بالسواك تابع للنظافة الشخصية لكن رسول ا ﷺ لم يأمر به مع كل فرض صلاة رغم ما يعلم من ضرورة ذلك خشية أن يشق على المسلمين. فقال: "لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة". البخاري ومسلم.

وأمر ﷺ بالتخفيف وعدم الإطالة في صلاتي الجمعة والجماعة خشية المشقّة على كبار السن والمرضى قال ﷺ : "إذا صلى أحدكم فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير فإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء". متفق عليه.

كذلك ألغى الإسلام ما كان عند العرب من عادات في العبادة ليست من روح الإسلام:

١. العري عند الطواف: لظنهم أن الطواف بثياب عصوا ا وهم يلبسونها خطيئة. فجاء القرآن بقوله تعالى: " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ". الأعراف (٣١).
٢. الحرمان من الطعام أيام الحج: حيث كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً(١)، ولا يأكلون دسماً أيام الحج. فقال المسلمون يا رسول ا : نحن أحق بذلك. فأنزل ا : " وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ". الأعراف (٣١).
٣. الصمت أثناء أداء الحج: قال ﷺ : "لا صمات(٢) يوم إلى ليل". أبو داود. حيث كان من نسك الجاهلية الصمات فنهاهم رسول ا وأمرهم بالحديث وعلمهم ا تعالى: أن يتكلموا بما هو خير لهم. " فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ...". البقرة (١٩٨). وقوله تعالى: " فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ". البقرة (٢٠٠).

- **أما التشدد في العبادة فله وجهان: إما أن يكون في:**

١. **أمر مشروع: كالنذر الذي يتوجب الوفاء به**: فمن نذر أن يصوم شهراً كل عام غير رمضان أو أن يصلي عشرين ركعة كل يوم ما عاش أو أن يتم قراءة القرآن في أسبوع طوال حياته، لزمه الوفاء، لأن الوفاء بالنذر واجب، فإن أمكنه الوفاء وهو قوي عجز عنه وهو في الكِبر، فقد شدد على نفسه ولم يظلمه أحد. أما إذا كان النذر خارجاً عن حدود الطاعة فلا يجب الوفاء به.
٢. **أمر غير مشروع**: كالوسوسة في العبادات فيأخذ في إعادة كل عمل بقصد اتقانه أو لشعوره بنقصه. شدد على نفسه فشدد القدر عليه حتى استحكم فيه وصار صفة لازمة له. وما ظلمه ا لكنه ظلم نفسه

---

(1) القوت: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام – المعجم الوسيط، مادة: قات.
(2) الصمات: الصمت – السكوت- المعجم الوسيط مادة: صمت.

بخروجه عن الاعتدال والتوسط، غفر ا له وهداه ليرفع عن نفسه الحرج. قال تعالى: " مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ". المائدة (٦).

- وقد يسر الإسلام على المسلمين ورفع عنهم الحرج في أمور منها:

١. سن ا التيمم، بالصعيد الطاهر، حيث لا يتوفر الماء أو حين يصبح في استعماله مشقّة بسبب المرض أو التعرض لخطر عند الحصول عليه.
٢. ورخّص الإفطار في رمضان للمريض والمسافر.
٣. وعفا عن المرأة فلم يكلّفها بإعادة ما فاتها من صلاة أثناء الحيض والنفاس.
٤. رخّص المسح على الخفين في البرد، والمسح على الجبيرة للمريض.
٥. رفع الحرج عن المريض والمسافر، من لم يستطع أداء النوافل، واحتسب له استمرار ثواب كل عمل كان يعمله من الطاعات النافلة أثناء العافية والإقامة. قال رسول ا ﷺ : "إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثلما كان يعمل مقيماً صحيحاً". رواه البخاري.
٦. عفا عن المقصرين في الجهاد لوجود ما يمنعهم ويحول بينهم وبين قيامهم بهذا الواجب.

أما ما نجد اليوم من الإهمال التام للعبادة عند البعض أو التقصير فيها، فذلك تفريط يمقته ا يؤول بأهله إلى ما يلي:

١. **حرمانهم رضا ا والجنة التي وعد بها العابدون**. قال تعالى: "إِن الْمسلِمِين والْمسلِماتِ والْمؤْمِنِين والْمؤْمِنَاتِ والْقَانِتِين والْقَانِتَاتِ والصادِقِين والصادِقَاتِ والصابِرِين والصابِراتِ والْخَاشِعِين والْخَاشِعاتِ والْمتَصدقِين والْمتَصدقَاتِ والصائِمِين والصائِماتِ والْحافِظِين فُروجهم والْحافِظَاتِ والذاكِرِين ا كَثِيرا والذاكِراتِ أَعد ا لَهم مغْفِرةً وأَجرا عظِيما". الأحزاب (٣٥).
٢. **استحقاقهم العذاب**: قال تعالى: " مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ... ". المدثر (٤٢-٤٣).
٣. **بعد رحمة ا عنهم**: لقوله تعالى: " وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ". النور (٥٦).
٤. **القرب من الشيطان والابتلاء بوسوسته**. قال تعالى: " قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ". الحجر (٣٩-٤٠). أي يستثني منهم من استخلصه من عباده لطاعته ومرضاته إذ أنه لا يقدر على غوايتهم".(١)

---

(1) صفوة التفاسير، جـ٢، ١٠١.

٥. **الحرمان من الطهارة من الذنوب، والبركة التي يعم الله بها مؤتي الزكاة**. قال تعالى: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ...". التوبة (١٠٣).

٦. **يغيب عنه ما يحياه العابد في ظلال روحانية بديعه من حب الله**. قال تعالى في الحديث القدسي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : "إن الله عز وجل قال من عادى لي ولياً آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه ...". البخاري.

هكذا فإن الإسلام في دعوته إلى العبادة، بين التفريط فيها بإهمالها والتقصير فيها وبين التشدد فيها إلى حد المغالاة والإفراط.

التوسط في الإنفاق:

أمر الله تعالى الإنسان بالسعي في الأرض بالحركة والتنقل والعمل من أجل الحصول على الرزق. قال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ". الملك (١٥).

وحض نبيه محمد ﷺ على عمل اليد، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما أكل أحد طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده". البخاري.

ونهى رسول الله ﷺ عن الاستجداء والسؤال قال عليه الصلاة والسلام: "من سأل الناس تكثراً فإنّما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر". رواه مسلم. وقال كذلك: "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم". متفق عليه.

كذلك حذّر من الشح، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم". مسلم.

وأنذر تعالى الذين يكنزون الأموال ولا ينفقونها في سبيله قال تعالى: " وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ". التوبة (٣٤).

وحض تعالى على إنفاق المال في سبيله بحسب الأبواب التي شرع الإنفاق فيها. قال تعالى: " وَمَا أَنْفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ". سبأ (٣٩).

(أي يعوض إن عاجلاً أو آجلاً بفتح أبواب الرزق، أو يبارك فيما بقي لدى المنفق والله أعلم، فالأمر متعلق بخبرته وقدرته على رزق العباد خاصة من أنفقوا في سبيله).

ويقول رسول ا ﷺ في هذا المعنى: "ما نقصت صدقة من مال ...". مسلم. وأوجب الإسلام على رب العائلة وولي الأمر أن ينفق على أهله وعائلته، وعد ذلك إنفاقاً في سبيل ا ، فعن أبي مسعود البدري رضي ا عنه، عن النبي ﷺ قال: "إذا أنفق الرجل على أهله نفقةً يحتسبها فهي له صدقة". متفق عليه. ونهى عن التقصير في ذلك وزجر من يفعله قال ﷺ : "كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت". أبو داود حديث صحيح.

وقد تتسع دائرة إنفاق المرء فينفق على والديه وإخوانه وربما أعمامه أو أخواله إن اقتضى الأمر، بحسب الظروف والأحوال. قال تعالى: " قُلْ مَا أَنْفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ". البقرة (٢١٥).

فربما يزداد الخير ويمتد أثره حتى يطول المجتمع، فكل مسلم يملك نصاب الزكاة وتنطبق عليه شروطها يؤدي زكاة ماله إلى بيت مال المسلمين، الذي يقوم بتوزيعها على مستحقيها وبذلها في مصارفها التي بينها ا تعالى في كتابه.

ويقدم المسلم زكاة ماله، وهو راضٍ، ويقبل عليها وهو يعلم أنها عبادة وركن من أركان الإسلام يقوم به، ويعرف حق المعرفة أن ما عنده من المال هو من عند ا آتاه إياه وهو قادر على حرمانه منه لأنه هو الذي يبسط الرزق ويقدره. قال تعالى: " اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ وَيَقْدِرُ ". الرعد (٢٦).

وقد امتدح ا تعالى الصالحين وبين جزاءهم يوم الدين جزاء إيمانهم وإخلاصهم العبادة وزكاتهم وصدقاتهم. قال تعالى: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّن اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ". الذاريات (١٥-١٨).

وهكذا نرى كيف أن الإسلام شجع الإنفاق ... لكنه لم يترك هذه المسألة حرة بغير حدود، فذلك يضيع المال وفي هذا ضرر على الفرد والأمة. فضبط الشرع الحنيف هذه المسألة بدعوته إلى انتهاج أسلوب الاعتدال في الإنفاق. قال تعالى: " وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ". الإسراء (٢٩).

أي لا تكن بخيلاً كمن شدت يده إلى عنقه فلا يستطيع أن يعطي بها، كناية عن المنع، ولا تكن مسرفاً، فيدك ممدودة، تتوسع في الإنفاق، ولا تتوقف عنه أو تنفق على الكماليات وغير الضروريات.

وقد نهت الآية الكريمة السابقة الذكر، عن أمرين وقابلت حالتين متضادتين كلاًّ منهما وبال على صاحبها، **فالحالة الأولى وهي البخل**، تجر على صاحبها المشاكل: **أولها** أنّه محتاج وحاجته عنده يمنع نفسه التصرف بها، ومحروم وهو يشتهي، ومذموم من أهله ومتهم بالسخف والجنون لأنه يجمع وليس له نصيب مما يجمع وملام من أهل مجتمعه وواقع عليه حسد الجاهلين منهم.

والحالة الثانية: وهي حال المبذر والتي لا يطول معه الوقت حتى يضيع كل ما عنده، فيتوقف عن الإنفاق، وينتقل إلى الحاجة وضيقها ونكدها ثم التحسر على ما فات ...

وهاتان حالتان لا يرضى الرحمن عنهما، لإنحرافهما عن الصراط المستقيم الذي اختطه لعباده، وهو نهج الاعتدال في سائر شؤونهم، فنراه تعالى يثني على عباد الرحمن الذين عد صفاتهم ومنها الاعتدال في الإنفاق. قال تعالى: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ". الفرقان (٦٧).

كما حض رسول ا ﷺ على الاقتصاد في النفقة وبين فضلها في العيش بكرامة دون جري كثير خاف المال، وبلا حيرة في توفير المزيد منه. قال ﷺ : "ما عال(١) من اقتصد(٢)". رواه أحمد.

(1) عال الأمر فلاناً: مال عليه وثقل واشتد / المعجم الوسيط، مادة عال.

(2) اقتصد: في النفقة ولم يقتّر / المعجم الوسيط، مادة قصد.

التوسط في الأكل والشرب:

فطر ا الإنسان على حب الطعام والشراب، والأكل والشرب، ويعلم أن الغذاء ضروري لنموه وصحته وسلامته من الأمراض. فتجلّت حكمته في إباحة الطعام والشراب ما دام في إطار الطيب المباح. قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ ". البقرة (١٧٢). كذلك استنكاره على البعض، الذين يحرمون على أنفسهم الطيبات، قال تعالى: " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ". الأعراف (٣٢).

وإنّما اختار تعالى للنّاس، الطيب ليتطيبوا ويباركوا، وحرم الخبائث عليهم كي لا يخبثوا بها وتُمحق بركتهم. قال تعالى: "الذين يتّبعون الرسول النبي الأمي ... إلى قوله تعالى: " يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ...". الأعراف (١٥٧).

وكل مباح طيب وكل حرام في نظر المسلم خبيث(١)، كالدم والميتة وما أهلّ لغير ا به (أي لم يسم باسم ا عليه عند الذبح"، وكل مسكر ومخدر وكل ما امتلك من طريق حرام، كالمسروق والمغصوب وغير ذلك.

وبعد ذلك كله اشترط ا تعالى الاعتدال فيما يتناول المسلم من طعام وشراب مباح. قال تعالى: " وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ". الأعراف (٣١). وقال رسوله الكريم: "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة". سنن النسائي.

ففيما استنكر تعالى من يحرم على نفسه الطيبات، ينهى عن الغلو في هذه المسألة، فمثلما أن تحريم الطيبات على النفس معيب كذلك مجاوزة الحد في التمتع بهذه الطيبات، معيب. إذ المقصود أن يقبل الإنسان على ما فيه سلامة صحة بدنه وقلة الطعام والشراب مضرة بالبدن وهذا معروف للجميع، كذلك الإكثار من الطعام والشراب إذ يتسبب في زيادة الوزن الذي يحد من حركة الفرد ونشاطه ويكون عاملاً مساعداً في الإصابة بالأمراض المختلفة كالأمراض الخاصة بالجهاز الهضمي أو العظمي أو العصبي، وتعمل على خروج الجسم عن حالة الاتزان من حيث مكوناته، فربما تزداد الأملاح أو الدهون وغيرها عن الحد الطبيعي والنسبة الملائمة مما يسبب متاعباً كثيرةً وآلاماً مبرحة.

والتوسط في الطعام والشراب، هو السياسة التي ينتهجها المسلم، كما علّمه ا ورسوله. قال ا تعالى: "ولا تسرفوا". وقال محمد ﷺ : "ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه". رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

فإن من يملأ إناء يجعل في حسبانه لحظة حمل هذا الإناء، فلا يتم ملؤه خشية أن يندلق بعض ما فيه. وكذا من يملأ معدته بأشكال الطعام، من الضروري أن يجعل في حسابه ما سيضاف إلى كمية الطعام المأكولة من الشراب أو الماء بداعي العطش وسواه، وكذلك يأخذ في الاعتبار راحته بعد ذلك فإذا امتلأت المعدة بالماء

---

(1) خَبثَ الشيء: صار فاسداً رديئاً مكروهاً. الأخبثان البول والغائط. والخَبث: ما ينفيه الكير من الحديد عند طرقه. والخُبث: النجس وخَبث البركان: ما يقذفه من حمم (المعجم الوسيط، مادة خبث، ١).

والشراب شغلت حيزاً أكبر في الجسم عاق عمل جهاز تنفسه الذي يعلو معدته فأحس بضيق التنفس وسعى إلى المهضمات والمشروبات الغازية ليخفف من معاناته.

هكذا نرى ما في توجيه رسول ا ﷺ من حكمة يقدرها ويعمل بها كل عاقل، فيحافظ على صحته واعتدال قوامه ويستريح من الجري خاف وسائل إنقاص الوزن، فيكون خلي البال ويتفرغ لمهمة أسمى تتعلق بدوره في الحياة، فالمؤمن يأكل لسد جوعه، ويقبل على الغذاء ليحافظ على سلامته وعافيته رائده في ذلك العمل بهدي ا تعالى ورسوله ﷺ قال ﷺ : "المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء". صحيح مسلم.

واقتصاد المسلم في طعامه يفيد في مشاركة غيره من الأهل أو الجماعة قال ﷺ : "طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية". صحيح مسلم. ويتجلى في هذا حب الخير للآخرين وانتصار المشاركة على الأثرة وحب الذات رغم ظروف العوز والحاجة، وهذا مخالف تماماً لما نراه أيامنا الحاضرة من موائد المناسبات، التي تزخر بعشرات أصناف الأطعمة والأشربة، خاصة في مجتمعات الثراء، وهو عمل خارج عن حد الاعتدال يشوبه الفخر والتباهي، ويتخم فيه المدعوون ثم يجمع ما فضل منه ليستغنى عنه فيما يحرمه المستحقون والجائعون. فعن أبي هريرة رضي ا عنه قال: "بئس الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء". البخاري ومسلم.

إن ا تعالى يبرأ من فعل كهذا فيه ضياع النعمة وهدرها وحرمان أهل الحاجة منها ... فرسول ا ﷺ يستنكر ضياع لقمة سقطت من يد صاحبها ... قال ﷺ : "إذا سقطت من أحدكم اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان. فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنّه لا يدري في أي طعام تكون البركة". صحيح مسلم.

وكذلك فإن المسلم لا يهتم بتعدد الأصناف واختيار الأطباق وتخير المشهيات ولا يسعى لاقتناء كتب الطهي وصناعة الحلوى ولا يهتم بزيادة ثقافته في فنون الطبخ العالمية.

لأنه يعلم أن الأكل وسيلة لا غاية، وهو يأكل ليحيا ولا يحيا من أجل الأكل وحشو المعدة.

التوسط في اللباس والزينة:

لقد سن ا تعالى اللباس منذ أن خاق آدم عليه السلام وكان اللباس من النّعم التي من ا بها عليه، حين أسكنه الجنّة. قال تعالى يخاطبه: " إِن لَكَ أَلا تَجوع فِيها ولاَ تَعرى ". طه (١١٨).

ولم يدع آدم لباسه ذاك حتى فتنه إبليس ووقع في الزلل وكان ما كان من انكشاف ستره وسـتر زوجتـه وتهافت لباسيهما عنهما وسعيهما جادين لستر عورتيهما من ورق الجنة. قال تعـالى: " فَـأَكَلاَ مِنْـهَـا فَبَـدَتْ لَـهُمَـا سَوْءَاتُـهُمَا وَطَفِقَا (١) يَخْصِفَانِ (٢) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ. طه (١٢١).

(1) طفقا: طَفِقَ (يفعل الشيء): جعل يفعله، المعجم الوسيط مادة طفق.

وخلق ا   تعالى الريش للطيور الذي أفاد منه الإنسان بعد نزوله إلى الأرض. قال تعالى: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ...". الأعراف (٢٦).

وخلق ا   كذلك القطن والصوف والحرير التي أفاد منها كلّها الإنسان فغزل خيوطها، وحاكها ثـم فصـل وخاط وصنع ما ساعده على إنتاج ما يحتاج إليه من الملابس، ثم أخذ إنتاجه يتقدم شيئاً فشيئاً حتى أبدع في هـذا المجال وأنتج الكثير من الملابس التي غطت الاحتياج وفاضت.

وللباس غايات كثيرة، منها التكيف مع أحوال الجو، وحفظ الجسم من المؤثرات المحيطة به، ومن شروط اللباس أن يكون مساعداً على تحقيق الغرض منه، فاللباس الصوفي لا يصلح للوقاية من الحر، واللبـاس القطنـي غير كافٍ للدفء ومقاومة البرد، واللباس الخشن لا يناسب ذوي الأجسام الحساسة والجلد المريض، أمـا اللبـاس الشفاف أو الضيق أو صغير الحجم فلا يفي بغاية الستر، وكذا فإن لباس المرأة لا يليق بالرجال، ولباس الرجل لا يليق بالنساء، ولباس الصبية لا يناسب البالغين ولا يتفق ووقارهم، ولباس المتّقين لا يتساوى مع لبـاس العاصـين الفَسقَة، ولكلّ أمة ألبسة تتفق مع مبادئها وإذ يفخر المسلمون بالإسلام فملابسهم بحسب ما شرع لهم.

وقد أدرك الشارع الحكيم كل غايات اللّباس، فأمر باللّباس، لكنّه جعل غاية "ستر العـورات" أول غايـات اللّباس.

وبين كيف يجدر بالمسلم ستر عوراته في مختلف الأحوال. ونهى عن التعري نهي تحريم، فألغى عـادات سادت في الجاهلية – قبل الإسلام – كالتعري حين الطواف حول الكعبة. قال تعالى: " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ". الأعراف (٣١) . والزينة: اللباس وهي غاية أخرى للباس لأن اللباس يكسب الإنسان جمالاً.

ويتعارض مع مبادئ الإسلام أن يكون اللباس لتحقيق هدف الكبر والخيلاء، ففي الخـيلاء تعزيـز لحـب الذات وقتل روح الشعور مع الآخرين، فخسف ا   تعالى بقارون وبداره الأرض حين خرج على قومـه بزينتـه مستعلياً. قال تعالى: " فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ". القصص (٨١).

ورسول ا   ﷺ يقول: "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة". سنن النسائي.

ومن منظور الإسلام أن تقوى ا   هو الجانب الثاني للباس فالتقوى شأن من شؤونه فكأنّما لبسه بملازمتـه له، فحين حض على اللباس المادي الذي يجمل المظهر أشار إلى لباس التقوى وهو الجمال البـاطني ذا الصـبغة المعنوية. قال تعالى: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ". الأعراف (٢٦).

قال الشاعر:

وخير لباس المرء طاعةُ ربه   ولا خير فيمن كان   عاصيا

---

(2) بخصفان: برفعان ويلزقان، صفوة التفاسير / جـ/١، ص٤٠٤.

والزينة: تتسع لتشمل زينة المدن والحدائق والبيوت والنساء، حيث تتزين المرأة لتبق محط نظر زوجها وإعجابه ومصدر سروره وتتزين النساء بالحلي من مجوهرات ومعادن خلقها ا وأحل التزين بها قال تعالى: " وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ". فاطر (١٢).

وحرم الإسلام على الرجل التزين بالذهب مثلما حرم عليه لبس الحرير قال ﷺ : "حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحلّ لنسائهم". الترمذي وقال حسن صحيح.

وحين جاء الشرع بهذا التحريم جعل تعالى أساور الذهب حلية المؤمن في الجنّة قال تعالى: " يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ". الحج (٢٣).

فالدنيا دار عمل والرجل عامل تليق به المهمات الجسيمة ويتوجب عليه الثقيل من الأعمال والعظيم من الأدوار، أسماها العمل على رفع كلمة ا والجهاد في سبيله. أما الآخرة فهي دار جزاء وثواب، فمن حرم شيئاً في الدنيا إرضاء لربه أُعطي له بل أحسن منه. فيما يحرم منه كل من عصى في الآخرة. فعن عمر بن الخطاب رضي ا عنه قال رسول ا ﷺ : "لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة". متفق عليه.

ورخّص الشرع الحنيف لبس الحرير لضرورةٍ كالمرض. فعن أنس بن مالك رضي ا عنه أن رسول ا ﷺ رخّص لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في القمص الحرير، في السفر، من حكّةٍ كانت بهما أو وجع كان بهما". مسلم.

ودعى الإسلام إلى سياسة الاتزان في الزينة بل إلى الإقلال منها حتى لا يتعلق المسلم بالدنيا وزينتها. فعن أبي سعيد الخدري رضي ا عنه قال: جلس رسول ا ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: "إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا". متفق عليه.

ووجه إلى عدم الجري خلف الكماليات، وإلى عدم التحسر عند عدم الحصول عليها فالأرزاق مسألة قدرية وكل محاسب على ما أوتي. قال ﷺ : "أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس للعبد إلا ما كُتب له". أخرجه الحاكم.

توسط أخلاق المسلم:

منذ أن أمر ا تعالى المسلم بإخلاص العبادة له، أمره بالتخلّق بحسن الخلق كقوله تعالى: " وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...". الإسراء (٢٣).

وقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ". التوبة (١١٩).

وجعل الخُلُق الحسن سبباً في مغفرة الذنوب، قال تعالى: "... وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَّغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ". النور (٢٢).

وقال رسول ا ﷺ : "إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار". رواه أبو داود.

وأثنى ا تعالى على نبينا محمد ﷺ بأنّه عظيم الخُلُق. قال تعالى: " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ. القلم (٤).

ودعا ا تعالى المسلمين للاقتداء به والتخلّق بأخلاقه قال تعـالى: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ". الأحزاب (٢١).

وبأن رسول ا ﷺ يعمل بأوامر ا تعالى ويجتنب نواهيه وسئلت السيدة عائشة "أم المؤمنين" رضي ا عنها، عن خلق رسول ا ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن".

وكان يرغّب بحسن الخلق. فعن عائشة رضي ا عنها قالت: قـال رسـول ا ﷺ : "لا تحقـرن مـن المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق". مسلم.

وينهى عن الرذيلة والفحش وسوء الخلق. ففي حديث عن السيدة عائشة رضي ا عنها قال رسول ا ﷺ: " يا عائشة إن شر الناس منزلة عند ا يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتّقاء فُحشه". مسلم.

ويدعوهم إلى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعن أبي موسى رضي ا عنه قال: قـال رسول ا ﷺ : "على كل مسلم صدقة".

قال: أرأيت إن لم يجد؟

قال ﷺ : يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق.

قال: أرأيت إن لم يستطع؟

قال ﷺ : يعين ذا الحاجة الملهوف.

قال: أرأيت إن لم يستطع؟

قال ﷺ : يأمر بالمعروف أو – الخير-.

قال: أرأيت إن لم يفعل؟

قال ﷺ : يمسك عن الشر فإنها صدقة". متفق عليه.

والمسلم إنسان صالح تَسكُن التقوى قلبه، فحيثما ارتحل حلّ قلبه معه، فيراقب المسلم ربه ولا يفعـل مـن الأعمال إلا ما يرضي ا عنه ولا يسلك من السلوك إلاّ ما كان سليماً لأنّه يعلم أن الكون برمته خاضع لعلـم ا

وتحت سمعه وبصره. سبحانه فالتقوى مبعث لكل خلق فاضل، وعمل صالح. يقول تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ". التوبة (١١٩).

ويقول أيضاً: " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ". المائدة (٨).

ويقول ﷺ : "اتق ا حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن". الترمـذي وقـال حديث حسن.

وبذا يكون المسلم الحق خارج وطنه علماً يعرف بأدبه وحسن خلقه ومسارعته إلى عمل الخير ومـد يـد العون.

والمسلم في مشاعره وسلوكياته يلتزم الاعتدال بحسب ما رسم به من نهـج، **فحـين شـرع الإسـلام التنافس في طلب الكمال**: علّم كل مسلم أن الكمال صفة ا تعالى، التي لا يرقى إليها مخلـوق مهمـا اجتهـد وبلغ، لأن الإنسان يصيب ويخطئ. قال تعالى: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ". فاطر (٣٢).

فالكمال علو وارتقاء والدناءة والضعة هبوطٌ وانحطاط والتنافس في طلب الكمال يتوسـطهما، فحيـث أن المرء لا يبلغ الكمال لكنه ينافس في طلبه جاهداً ما استطاع، فإنه مثاب على ذلك وغير مطلوب منه فعل أي عمل فوق طاقته وجهده.

قال تعالى: " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ". الأعراف (٤٢).

أما من اختار الدنيا وحصر نفسه في دائرة هواه وجنّد نفسه لتلبية مطالبها حتى أصبح عبداً لها، فلن يرتفع إلى الأعلى بل يبقى في الأسفل معيباً مذموماً. قال تعالى في رجل من بنـي إسـرائيل: " وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ (١) إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ...". الأعراف (١٧٦).

والمسلم ذا شخصية منضبطة لا يخشى في ا لومة لائم شديد على أعداء ا يقول تعالى: " مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...". الفتح (٢٩).

ولا يكون ليناً بل يكون رحيماً، مستمداً هذه الصفة ممن خَلَقه، مـع إخوانـه المـؤمنين - كبيـرهم وصغيرهم وضعيفهم - كما وجهه ا تعالى لذلك فحين أوصاه بالوالدين قال: " وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ". الإسراء (٢٤).

وكما في توجيه سيدنا ومعلمنا نبي ا عليه الصلاة والسلام. عن أبي هريرة رضي ا عنه قـال: قبـل رسول ا ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً فقال الأقرع: "إن لي عشرة من الولـد مـا قبلت منهم أحداً. فنظر رسول ا ﷺ إليه ثم قال: "من لا يرحم لا يرحم". البخاري.

---

(1) أخلد إلى الشيء مال إليه وركن ولزمه / المعجم الوسيط، مادة خلد.

وقد وصف ا تعالى المسلمين بأنهم يتواصون بالمرحمة، أي يوصي بعضهم البعض بالرحمة. " ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ". البلد (١٧).

والرحمة صفة من صفات نبينا محمد ﷺ لرحمته بالمؤمنين. قال تعالى: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...". آل عمران (١٥٩).

وحين يقسو المؤمن على أخيه المسلم، إن عصا ا فذلك رحمةً به ليرده عن غيه وعصيانه ويمنعه من ظلمه ويسهم في تطهيره من الذنب قال ﷺ لرجل: "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً". قال الرجل: يا رسول ا أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظلم ذلك نصره". البخاري.

والمسلم حليم: عنده ما يكفي من الأناة وضبط النفس، لا يسهل إخراجه عن اتزانه. ولا يجهل إذا جهلَ عليه أحد فسبه أو شتمه أو اتّهمه بغير حق أو أغاظ عليه، مقتدياً برسول ا ﷺ . يقول أنس رضي ا عنه: "كنت أمشي مع رسول ا ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق رسول ا ﷺ وقد أثّر بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: "يا محمد: مر لي من مال ا الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء" البخاري ومسلم.

وهكذا كان صحابة رسول ا صلى ا عليه وسلم، قيل أن رجلاً قال لأبي بكر يوماً "وا لأسبنّك سباً يدخل القبر معك، فقال له: معك يدخل لا معي".

والمؤمن يدرأ الغضب والفتنه بكلمة، كالصائم يقول: "اللهم إني صائم".

يقول الشاعر:

واصفح عن سِباب الناس حلْماً وشر النّاس من يهوى السبابا

أما إذا كان الحِلْم يؤدي بالمرء إلى المهانة والذلّ فهو مداراة مذمومة مردها الضعف، والمسلم عزيز لا يرضى بالمهانة.

قال الشاعر:

ولا خير في عرض امرئ لا يصونه ولا خير في حلم امرئ ذلّ جانبه

فالمسلم حليم - الحلْم بين المداراة والجهل -، ويعطي بحلمه الفرصة للطائش حتى يعود عن طيشه ولا يحلم عند التطاول والتمادي.

قال الشاعر:

ولا خير في حِلْمٍ إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

والمؤمن سعيد يملأ نفسه الرضا بما قسم ا له، يغلب الرضا على مشاعره فلا يكتئب(١) مهما ألم به من خطوب الدهر، ولا يميل إلى الانزواء أو التوحد ومقاطعة الجماعة والمشاركات الاجتماعية ولا يتقوقع على

---

(1) الاكتئاب : كئب تغيرت نفسه وانكسرت من شدة الهم والحزن، فهو كئيب / المعجم الوسيط جـ٢ ، مادة كئِب.

أحزانه، ذاك أنه يؤمن بالقضاء والقدر، ويعمل على تصبير نفسه وحمد ا   الذي عرف أنه لا يحمد على مكـروه سواه، وأدرك أنه مجازيه ومثيبه على ما أصابه.

يقول ﷺ : "ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلاّ كُتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة". مسلم.

وقال ﷺ لامرأة سبت الحمى: "لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد". مسلم.

أما إذا فرح المسلم لرزق رزقه أو نعمة أوتيها أو هماً انزاح عنه، فإن فرحه لا يصل به إلى درجة الفخر والتباهي والزهو بنفسه لأنه يعلم أن ما حققه كان بفضل ا   عليه وتأييده له فحمده وشكره وأثنى عليـه واسـتعد لاستكمال مسيرته وعمل الصالحات التي ترضيه عنه. وهكذا نرى فإن المسلم، لإيمانه بالقضاء والقدر يعتدل فـي حزنه وسروره فيكون دوماً راضياً بما قسم ا   له.

قال تعالى: " مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ". (٢٢-٢٣ الحديد).

والمسلم إنسان واعٍ، يراقب ما يدور حوله من أمور ويختار لنفسه ما يصلح لها، يحافظ الرجل على عائلته وسمعتها وتحافظ المرأة على بيتها وسلامة بنيانه، ولا يرضى المسلم بجلسات الاختلاط بين الرجال والنساء لأنـه أمر خارج عما وضع الإسلام من قواعد ونظم حياة، ويرفض المؤمن أن يجامل زوجة غيره مثلما يأبى أن يجامل أحد من الرجال الأغراب زوجته، فإن بعض هذه المجاملات تمتد حتى تصل إلى أركان البيت فتهدمه وإذا حصل مثل هذه الجلسات فإن الرجل لا يغفل عن مراقبة أهل بيته من نساء وبنات، خاصة إذا كان في البيت أجانب مـن موظفين وسواقين وعاملين وغير ذلك، لكنه أبداً لا يقع تحت سيطرة الظن الطائش والغيرة الحمقى والاتّهـام مـن غير دليل.

وللمسلم قدوة حسنة في رسول ا   ﷺ حين اتهمت زوجته (أم المؤمنين) السيدة عائشة رضي ا   عنها في حادثة الإفك، فلم يثر ولم يفصل في هذه المسألة حتى نزل أمر ا   فيها وقال مما قال: "فوا   ما علمت على أهلـي إلاّ خيراً، لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي" البخاري ومسلم.

فالمسلم بوعيه هذا، يكون بين الظن (الاتّهام من غير دليل) أو الغيرة الحمقى **التي طالما أدت إلى إيقاع الأذى بالأهل أو إزهاق الأرواح وهذه أعمال تبطل الأعمال الصالحة في ساعة طيش وحمق وقد تهدر أركان أسرة وتضيع حياة أطفال لا ذنب لهم ولا جريرة.**

التوسط بين الخوف والرجاء:

الدنيا لا تشكّل عند المسلم قضية فهو لا يخشى قلّة الرزق أو ضيق الحال فهو يعلم أن الأرزاق بيد ا وأنّه يعطي سائله، لذا فهو يسأل ربه حاجته، وهو متيقّن من الإجابة حسن الظن با تعالى.

أما ما يقلق المسلم فهو معاصيه في الدنيا ومخالفته لأوامر ا ، فيخشى أن لا ترتقـي بـه أعمالـه يـوم الحساب، وهذا ما يؤول به إلى محاسبة نفسه على الدوام ومسارعته إلى التوبة والاستغفار والإكثـار مـن عمـل الصالحات. قال تعالى في وصف المـؤمنين: " رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ". النور (٣٧).

وكلّما تقدم المسلم في العمر أصبح أكثر دقةً في محاسبة نفسه، وأعظم خشية من لقاء ا تعالى، وخاصـة من أسرف على نفسه في فعل الآثام وجمع إلى صغائر الذنوب كبائر المعاصي ولولا أن المسلم يرجو رحمة ربـه وعفوه على الدوام لهلك خوفاً من ا .

وا تعالى هو من أعطى للمسلم فرصة التعلّق بحبل الرجاء بعفوه، حين فتح باب التوبة وفسـح المجـال لإصلاح ما فسد، قال تعالى: " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ". الزمر (٥٣).

وبذا فإن المسلم لا تصل به محاسبته نفسه إلى اليأس من رحمة ا وعفوه لأنّه سبحانه وعد بـالعفو عـن التائب النادم. ولا يميل المسلم إلى الرجاء بعفو ا لا يحاسب نفسه، فذلك ينطوي تحت الأمن من مكر ا وعقابه. قال تعالى: " أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ". الأعراف (٩٩).

والأجدر أن يتمسك المسلم بحبلي الخوف من ا والرجاء بعفوه ومغفرته، فإذا أمسك بحبل الخوف فلا بد أن يمسك بالآخر حتى تستريح نفسه وتطيب حياته ويقبل على التوبة النصوح ويسـارع فـي الطاعـات وعمـل الحسنات التي تمحو السيئات. قال تعالى: "إن الحسنات يذهبن السيئات". أما إذا اكتفى بحبـل واحـد منهمـا فقـد انقطعت به السبل. وبذا يدعو المسلم كما أثر عن نبي المسلمين محمد ﷺ : "نرجو رحمتك ونخشى عـذابك ...". ويعمل على أساس ذلك.

الانحراف عن التوسط:

إن التوسط في الأمور سبيل من أنعم الله عليهم بالهداية والسداد، فعملوا بمنهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو الصحة في النفس.

ويرى الإمام ابن قدامة المقدسي(١) رحمه الله تعالى أن التوسط الحقيقي بين طرفين مسألة تقديرية تتراوح بين الغموض والوضوح وقد تكون بدقة الشعر .. فمن أفلح في تقدير هذا الوسط، فقد استقام على الصراط المستقيم التي ندعو في صلاتنا بالاستقامة عليه " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ". الفاتحة (٦).

ومن استقام عليه في الدنيا هدي إلى الاستقامة عليه في الآخرة وفاز. قال تعالى: " فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ". آل عمران (١٨٥). ويقترح على كل مسلم أن يتفقّد أخلاقه وأعماله ولينظر إن كان استقام على الطريقة أو انحرف إلى إفراط أو تفريط ولينشغل بتصحيح مسيرته وعلاج انحرافاته أولاً بأول، وإن مما يساعد المرء على كشف انحرافه ما يلي:

أولاً: مجالسة إنسان بصير بعيوب النفوس إن توفّر.

ثانياً: مصاحبة الصديق الصالح البصير بأحواله فينبهه إلى انحرافه ذاك.

ثالثاً: قبول النصح دون امتعاض كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا". وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وإنّما سأل هذا السؤال لأن عمر تقي يقظ يخشى الانحراف عن جادة الدين القويم فهو يتّهم نفسه حتى تثبت براءتها. وكذا سأل عمر سلمان الفارسي (رضي الله عنهما) لما قدم عليه عن عيوبه فأجابه: "سمعت أنّك جمعت بين أدامين على مائدة، وإن لك حلّتين حلّة بالليل وحلّة بالنهار. فقال: "هل بلغك غير هذا؟ قال لا. فقال عمر: "أما هذا فقد كفيتهما".

رابعاً: معرفة عيوبه من ألسنة أعدائه: فالعدو أعرف بعيوب المرء وأجرأ في إظهارها، قال الشافعي رحمه الله تعالى:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ولكن عين السخط تُبدي المساويا

خامساً: رؤية الدنيا بمنظارها الحقيقي، فهي دار فانية زائلة، والإقامة بها مؤقتة، وإنما هي محطة في سفر نستريح بها ونجمع منها ما يعيننا على السفر وسلامة الوصول، قال رسول الله ﷺ لصحابته: "ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال(٢) تحت شجرة ثم تركها". الترمذي باسناد صحيح.

---

(1) انظر كتاب مختصر منهاج القاصدين.

(2) قال قيلاً نام وسط النهار المعجم الوسيط، مادة قيل.

فإذا نظر المسلم للدنيا هذه النظرة صبر على ضيقها وما غذّ الخطى للشبع والاستزادة كـي لا يضـل أو ينحرف لأن الدنيا تُغري المقبل عليها وهو طامح أن يشبع حتى يموت يقول رسول ا ﷺ : "من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى". أحمد ورواته ثقات.

فلا يكون حب الدنيا سبباً في نقص مقامه في آخرته، حيث ينعم من حافظ على حب آخرته في نفسه، بمـا أُعِد له ويسعد بلقاء ربه وينسى مشاقّ الطريق وعذاب السفر وقديماً قالت العرب: "عنـد الصـباح يحمـد القـوم السرى".(١)

وقال قائل في حب الدنيا وطالبها: "طالب الدنيا مثل شارب البحر كلما ازداد شُـرباً ازداد عطشـاً حتـى يقتله".

• علاج الانحراف:

الإنسان جسم ونفس، ومثلما يخلق الجسم صغيراً ثم ينمو ويحتاج لنموه الغذاء وعناية المربي، تُخلق النفس ناقصة وتكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والعلم غذاؤها ومثلما نسعى للحفاظ على صحة الجسم ونجلب له الـدواء إذا مرض، نسعى للحفاظ على سلامة النفس ونسعى لعلاجها وكمالها إذا مرضت. والسعي على النفس أهـم مـن السعي على الجسم لأن الجسم ينتهي عذابه بموته فيما أن النفس يستمر عذابها بعد موتها. ولما كان الجهل سبباً في مرض الجسم، وعلوم الصحة تزيل هذا الجهل فكذلك مرض النفس علاجه بعلم الشرع والعمل به.

والجسم يعالج بمبدأي الضد والحمية، فمن ارتفعت حرارته عالجها بالماء البارد ومن أصـيب بميكـروب شفي بالقضاء على هذا الميكروب، وإذا كان الخلط في أصناف الطعام سبب ارتباك الهضم وألم المعدة أُمر بالحمية وإن كان المرض بسبب نقص بعض المواد زود بتلك المواد من فيتامينات وأملاح وإن كان مبتلى بزيادة المـواد كالأملاح أو الدهون حمي عن الأطعمة التي يتوفران بها.

وفي كل الأحوال، على المريض تحمل مرارة الدواء ويتضمن الصبر على الشـهوات بالامتنـاع عنهـا (الحمية) فإن أراد ا له الشفاء واستراح جسمه واختطّ بعد ذلك منهج الاعتدال في أكله وشربه سمِح له بتناولهما، ويختلف الأمر إن لم يصبر فيبقى عليلاً محروماً.

وكذلك النفس تعالج على نفس المبدأين الضد والحمية ويرى الإمام المقدسي أن علاج المـريض مختلـف بحسب مرضه، وعلاج البخيل مختلف عن علاج المتكبر وعن علاج النهم ... وهكذا كـأمراض البـدن يختلـف علاجها بحسب نوعها.

فإن علّم الجاهل وعرفَ البخيل مساوئ الشح ومزايا السخاء ودرب على السخاء شيئاً فشيئاً يألف العطـاء ويستقيم على خط الاعتدال في الإنفاق فلم يسرف ولم يقتّر.

---

(1) السرى: السير بالليل.

كذلك إن عِلِم أن الإنفاق في سبيل ا لا يؤدي إلى الفقر بل إنه سبب فتح باب الرزق، أقلع عـن البخـل المؤدي للهلاك.

ويكون علاج المتكبر بالتواضع فيطلب منه مجالسة عامة الناس ومجاملة الضعاف والمسـاكين ومرافقـة المتواضعين ليأنس بهم. أما النهم(١) المقبل دوماً على النهل من الشهوات على اختلافها فيؤخَذ بيده ليكـف عمـا يشتهي شيئاً فشيئاً، ويبحث له عما يشغل وقته مما نفع من الأعمال ليضعف تفكيره فيما يشتهي قال ﷺ : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنّه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه لـه وجاء". رواه البخاري. ويوصي أهل العِلم والأطباء بممارسة الرياضة بكافة أصنافها لتبعد التفكيـر فـي المتعـة الحسية. وكذلك حضور مجالس العلماء والذهاب إلى المساجد وسماع أحاديث الأئمة والصالحين، والأهم من ذلك: الابتعاد عن المكان الذي تتوفر فيه شهوته مهما كانت.

ومن ابتُلي بحب الشهوات يدرّب نفسه على الصبر عنها شيئاً فشيئاً حتى تعتاد نفسه ويصبح الاستغناء عن كثير منها صفة من صفاته فذاك الفطام أي يفطم نفسه عن الزائد منها كما ينفطم الطفل عن ثدي أمه فإذا عـرض عليه بعد ذلك يأباه.

وتصلح هذه الطريقة للمدخنين والمبتلين بشرب المشروبات المنبهة كالقهوة والشاي وسواهما.

أما شديد الغضب فيلزمه التدرب على الصبر وعدم إنفاذ الغضب. فعن أبي هريرة رضي ا عنه أن النبي ﷺ قال: "ليس الشديد بالصرعة إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب". البخاري ومسلم.

وعلى سريع الغضب أن يسعى لتغيير وضعه بحيث يكون أكثر استرخاء ليعينه ذلك على إطفاء غضـبه. فعن أبي ذر رضي ا عنه أن رسول ا ﷺ قال: "إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضـب وإلاّ فليضطجع" أبو داود.

والشروع في الوضوء يطفئ نار الغضب قال ﷺ : "فإذا غضب أحدكم فليتوضأ". رواه أبو داود.

وإذا علم الغاضب أن الغضب يسوق إلى الجهل والجهل يسوق إلى الإثم، وأن الصبر يسوق إلـى الحلـم والحلم يسوق إلى خضوع عدوه له، طوع نفسه على الصبر عند الغضب، قال تعـالى: " ادْفَعْ بِـالَّتِي هِـيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ". فصلت (٣٤).

قال ابن عباس رضي ا عنهما في تفسير هذه الآية: "الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم ا وخضع لهم عدوهم". ذكره البخاري.

ومن ابتُلي بطول الأمل، فهو يخطّط ليل نهار من أجل المزيد، ويحلم بحياة أكمل، كمن يحلم ببيت واسـع فإن تم له سعى لتجهيزه بأثاث فاخر، فإذا تم له سعى لإبداله وهكذا لا يعمل للآخرة، فذاك يحتاج لـدرس المـوت وكفى بالموت واعظاً، يترك الميت كل ما جمع لا يرافقه إلى القبر غير عمله ويبقى ما في الدنيا فيها.

---

(1) النّهم: نَهم في الشيء نهماً أفرط الشهوة أو الرغبة فيه. المعجم الوسيط، مادة نَهم.

ويحسن له التقرب إلى الزاهدين في الدنيا، والزاهد من يرضى إذا أعطي لكنه لا يحرص ولا يمنـع، وإذا ٌأخذ منه ما أعطي له فلا يحزن ولا يسخط، وهو الذي لا يشغل المال قلبه ولو أوتي مثلما أوتي قارون.

هذا ويجدر بالمريض أن يروض نفسه ليصبح قوي العزم فيقطع طريق التردد فإذا أحس من نفسه ضعف العزيمة تصبر وكان الصالحون يفعلون ذلك فإذا نقصت عزيمة نفوسهم عاقبوها لئلا تعود لسـالِف عهـدها مـن النقص كمن قال لنفسه: "تتكلمين فيما لا يعنيك لأعاقبنّك بصوم أسبوع. وقال بخيل: سأكفل يتيماً. وتحسن المواظبة في علاج النفس ولو كانت مسيرة العلاج مشقّة ومتعبة، فالوصول لفترة النقاهة يشعر الإنسان بالرضا عن نفسـه كالمفطوم يقاوم الفطام بادئ الأمر لكنه يجده فيما بعد أمراً طيباً وينسى أمر رضاعته وتعلقه بالثدي ولو رد الثدي إليه لرفضه. إن هذا "علاج النفس المريضة" أمر ضروري، لا غنى عنه فلا تحسـن الأخـلاق إلا بـه ولا تـتم الأعمال الصالحة إلا بالأخلاق الحسنة. وا تعالى يأخذ بيد من يسعى للاستقامة على صراطه ولا يخذ له أبداً فهو نعم المولى ونعم النصير. يقول تعالى: " إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ". النحل (١٢٨).

العدل صفةٌ من صفات ا تعـالى: " وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِـهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ". الأنعام (١١٥). عادل فيما قضى وقدر وأراد لنا سبحانه أن نتخذ العدل منهجاً في الفصل فـي الأمـور والبت في القضايا وتمييز الحقوق، وأن لا يكون حكمنا على الأمور خاضعاً لهوانا وعواطفنا ومصالحنا، ووجهنـا لأن تكون تقوانا وخشيتنا من عقابه وغضبه ميزاننا، قـال تعـالى: " وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ". وقال كذلك: "... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ...". الأنعام (١٥٢).

وقال سبحانه: " وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...". النساء (٥٨).

وجعل جلّ شأنه، التقوى ميزان التفاضل بين الناس في الحقوق والواجبات، ولم يجعل التفاضل بينهم اللون أو الجنس أو العنصر أو الصفات الخَلْقِية. قال تعالى فـي خطابـه لبنـي آدم: " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ". الحجرات (١٣).

من أجل ذلك كان القضاء الإسلامي وحكم قضاة المسلمين الأكثر نزاهة بين سائر القضاة في العالم، حينما التزموا بأوامر ا تعالى واتصفوا بصفة العدل التي أحبها ا جلّ شأنه.

ويتسع معنى العدل حتى يشمل كل سلوك في الحياة:

كالوزن: " وَأَقِيموا الْوزن بِالْقِسطِ ولا تُخْسِروا الْمِيزان ". الرحمن (٩).

وصالح الأعمال: "... إِنه يبدأُ الْخَلْقَ ثُم يعِيده لِيجزِي الَّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ بِالْقِسطِ ...". يونس (٤).

ورعاية اليتيم: قال تعالى: "... وأَن تَقُوموا لِلْيتَامى بِالْقِسطِ ...". النساء (١٢٧).

وفي الصلح بين جماعات المسلمين: "قال تعالى: "... فَإِن فَاءتْ فَأَصلِحوا بينَهما بِالْعدل وأَقْسِطُوا ...". الحجرات (٩).

وفي التعامل مع الأقوام الذين لا يؤذون المسلمين لا يقاتلونهم. قال تعالى: "... أَن تَبروهم وتُقْسِطُوا إِلَيهِم إِن ا َ يحِب الْمقْسِطِين ". الممتحنة (٨).

وفي معاملة النساء قال تعالى: " فَلا تَتبِعوا الْهوى أَن تَعدِلُوا ...". النساء (١٣٥)

وفي كتابة الدين لحفظ حق المدين. قال تعالى: " ولْيكْتُب بينَكُم كَاتِب بِالْعدل ...". البقرة (٢٨٢).

وفي الطلاق: قال تعالى: " وأَشْهدوا ذَوي عدلٍ منكُم وأَقِيموا الشهادةَ ِ ...". الطلاق (٢).

وفي الشهادة: قال تعالى: " وإِذَا قُلْتُم فَاعدِلُوا ولَو كَان ذَا قُربى ...". الأنعام (١٥٢).

وفي عطايا الآباء للأبناء، قال تعالى: " آباؤُكُم وأَبنَاؤُكُم لا تَدرون أَيهم أَقْرب لَكُم نَفْعا ". النساء (١١).

وغير ذلك في الكثير من المعاملات والصلات بين الأفراد والجماعات المسلمة وغير المسلمة مما يضيق عنه المقام.

مما تقدم عرفنا قيمة العدل عند ا تعالى – ذي العدل المطلق – وعرفنا أن ا تعالى أراده لعباده نعمةً يحلو معه العيش وتطمئن به النفوس وتصفو الحياة من الكدر.

والمسلمون لا خيار لهم في العدل بل هو مفروض عليهم مطالبون بتحقيقه في مختلف تصرفاتهم وسلوكهم، ومحاسبون على التقصير في ذلك لأنهم مأمورون بالتزامه، قال تعالى: " إِن ا َ يأْمر بِالْعدل والإحسان وإِيتَاءِ ذِي الْقُربى ...". النحل (٩٠).

والاعتدال، المشتق من العدل والمقصود به التوسط في سائر الأمور، أهم من العدل كما يرى بعض العلماء، لأنه ينظم كل شأن من شؤون المسلم في حياته، وهو

أخو الاستقامة وأشرف الفضائل وأسمى الأخلاق لأنه يوقف صاحبه دون حدود ا فلا يتعداها وتنهض به إلى الفرائض فلا يقصر في أدائها أو يفرط في جزء من أجزائها، ويعلمه العفّة فيكتفي بما أحلّ ا له عما حرم عليه".(١)

وعليه فإن الاستقامة هي الاعتدال فيما أبيح لنا من أمور وسلوك ونعم. والتوسط في سائر أحوالنـا، كمـا بينها ديننا الحنيف الذي أراده سمةً لأمتنا "وجعلناكم أمةً وسطاً" هذا التوسط الذي هو مبعث خيرٍ عميم لهذه الأمة، قال تعالى: " وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا " الجن (١٦). وقال جلّ جلالـه: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ". الأحقاف (١٣).

أما الصراط المستقيم فهو خط الاعتدال الذي أُمِرنا بالتزامه، وانفردت الأمة المسلمة باتخـاذه نهجـاً لهـا وأُمِرنا أن نسأل ا تعـالى الهدايـة إليـه " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ". الفاتحة (٦-٧).

اللهم اهدنا الصراط المستقيم الذي اخترت لنا واجعلنا يوم لقائك من الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون وصلى ا عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين.

---

(1) انظر منهاج المسلم ص١٥٧.

المراجع والمصادر

١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبدالباقي – دار ومطابع الشعب – ط٢.

٢. صفوة التفاسير / محمد علي الصابوني – دار الفكر للنشر والتوزيع – بيروت – ط٢، ٢٠٠٠م.

٣. منهاج المسلم / أبو بكر الجزائري – دار الكتب السلفية – القاهرة – ط٢.

٤. مختصر منهاج القاصدين / الإمام أحمد بن عبدالرحمن بن قدامـة المقدسـي – دار عمـار – القصـيم بالسعودية – ط٢ – ١٩٩٤م.

٥. العبادة في الإسلام / يوسف القرضاوي – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط٢ – ١٩٧١م.

٦. المعجم الوسيط/ د. إبراهيم أنيس وآخرون– إشراف مجمع اللغة العربية – دار المعارف –القاهرة – ط٢.

٧. وصايا الرسول / شرح وتعليق: طه عبدا العفيفي – دار المعرفة – الدار البيضاء – ط٢ – ١٩٨٦م.

٨. مشكلة الغلو في الدين في العاصر الحاضر – الأسباب- الآثار - العلاج / عبدالرحمن بن معلى اللويحق– مؤسسة الرسالة – بيروت – ط٢ – ١٩٩٩م.

عرفنا فيما سبق أن الإسلام هو دين وأن أمة الإسلام هي الأمة الوسط التي اختارها ا لحمل مبـدأ الإسـلام (كما فهمنا معناه) الذي هو دين الأنبياء والرسل قبل محمد ﷺ. وقد اتّصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السـلام فلم تنقطع من الأرض ولم تنفصل بينها فجوات مضيعه لمعالم العقيدة، كالفجوات بين الرسالات قبل إبراهيم عليـه السلام (٢٣) فيقول ﷻ ﴿ ملةَ أَبِيكُم إِبراهِيم﴾ الحج (٧٨) (وا تعالى أعلم).

وقد خصها ا بأكمل شرع وأكرم رسول ومنهاج وطبيعته الرحمة لا ضيق فيه ولا مشقة، تكاليفـه تـوازي طاقة الإنسان وتلائم فطرته وخلقه، وقد سماهم ا المسلمين في كتب الديانات السابقة وفي القرآن الكريم، فكـأنهم تسلموا هذه الأمانة " الإسلام" وعهد إليهم بالوصاية على البشرية فاتّصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أراد ا جلّ شأنه قال ﷻ : ﴿ هو اجتَباكُم وما جعلَ علَيكُم فِي الدين مِن حرجٍ ملةَ أَبِيكُم إِبراهِيم هو سماكُم الْمسلِمين مِـن قَبلُ وفِي هذَا لِيكُون الرسولُ شَهِيدا علَيكُم وتَكُونُوا شُهداء علَى الناسِ﴾ الحج (٧٨).

فإذا شهد محمد ﷺ على هذه الأمة وحدد نهجها واتجاهها و أقر صوابها وخطأها، تشهد أمته على النّاس بمثـل هذه فهي القوامة على البشرية بعد نبيها،وهي الوصية على النّاس بموازين شريعتها وفكرتها في الكون والحيـاة. وهذا لن يتم إلاّ إذا استمسكت بمنهجها الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية (٢٤) لذا فا تعالى بين لهـم أسـباب الفلاح.

* أسباب الفلاح

التعامل مع ا بعبادته: وتكون العبادة بأداء الفرائض ويتسع معنى العبادة ليشمل كل عمل فيه اتّباع لأمر ا واجتناب لنواهيه ، بل أنه يتعدى ذلك إلى الكلمة يقولها المرء وإلي إحساس يتحرك في صـدره ويحـدد ذلـك النوايا وسلامتها.

التعامل مع الناس: بالإحسان والبر والخير على اختلاف صلته بهم قال ﷻ ﴿ يا أَيها الَّذِين آمنُوا اركَعـوا واسجدوا واعبدوا ربكُم وافْعلُوا الْخَير لَعلَّكُم تُفْلِحون﴾ الحج (٧٧).

فإذا حسنت صلة المسلمين با تعالى واستقامت حياتهم بما فعلوا من خيرات وبعدوا طبعاً عن كل شـر وفسـاد، استقامت حياة أمتهم ونهضت بما حملت من أمانة.

وإن الجهاد في سبيل ا ضرورة من ضرورات هذه الرسالة لدحر عدوها ورد الظلم عنها وردع العابثين أعداء الحق والدين وتيسير سبل التعرف بها قال ﷻ ﴿ وجاهِدوا فِي ا ِ حق جِهادِهِ﴾الحج (٧٨)

وينضوي تحت معنى الجهاد جهاد العدو وجهاد النفس وجهاد الشّر والفساد والمنكر.

هذه هي الأمانة التي حملها ا للأمة المسلمة، لا مفر من القيام بها على أحسن وجهة، كما بين لهم ذلك.

---

(23) في ظلال القرآن المجلد الخامس / ص ٦٣٢

(24) في ظلال القرآن المجلد الخامس / ص ٦٣٢

وإن اختيارهم لهذه المهمة إكرام لهم ينبغي أن يقابلوه بالشكر والعرفان وذلك بعبادته فذلك مما يعينهم، واللجوء إليه والاستعانة به فهو وليهم من يمدهم بالقوة والتأييد والنصر قال ﷻ ﴿ فَأَقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ واعتَصِموا بِـا ـ هو مولاكُم فَنِعم الْمولى ونِعم النصِير﴾الحج (٧٨)

فكأني أرى في هذه الآية الكريمة بشائر النصر لهذه الأمة التي أمست مغلوبة على أمرها إذا ما عملت بمـا جـاء فيها من هدى كريم.

وإن ما نرى اليوم من بعد كثير من المسلمين عما شرع ا وإقبالهم على الدنيا ومباهجهـا، غفـوة يلـزم التنبه منها وغفلّةٌ يجب الصحو منها، لأن ما بين أيديهم من أمانة الدعوة إلى سبيل ا توجب عليهم أن يكونوا هداة مهتدين، خلقهم القرآن، وصفاتهم تزينهم وأفعالهم تدلّ على دينهم وآثاره في شخوصهم ليقول من اعتنق الإسلام " : عرفنا المسلمين فأحببناهم ثم رضينا الإسلام ديناً" الحمد أنا عرفنا الإسلام قبل أن نعرف المسلمين" وشتان مـا بين هذين القولين.

فنسأل ا جلّ شانه أن يحبب إليهم الإيمان ويزينّه في قلوبهم وأن يكره إليهم الكفر والفسـوق والعصـيان وهو أرحم الراحمين.